الطريق إلى فلسطين

الدكتور

عماد الدين خليل



2008

الطريق إلى فلسطين

الدكتور
عماد الدين خليل

الطبعة الأولى
٢٠٠٨
دار وائل للنشر

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٦/١٢/٣٣٥٨)
خليل ، عماد
الطريق إلى فلسطين / عماد الدين خليل . - عمان ، دار وائل ، ٢٠٠٦ .
(١٥٦) ص
ر.إ. : (٢٠٠٦/١٢/٣٣٥٨)
الواصفات: التاريخ الإسلامي / فلسطين
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

****

رقم التصنيف العشري / ديوي : ٩٥٦
ISBN 9957-11-692-4 (ردمك)

* الطريــق إلــى فلسطين
* الدكتور عماد الدين خليل
* الطبعــة الأولى ٢٠٠٨



دار وائل للنشر والتوزيع

* الأردن - عمان - شارع الجمعية العلمية الملكية - مبنى الجامعة الاردنية الاستثماري رقم (٢) الطابق الثاني
هـاتف : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣٨٤١٠ - فاكس : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣١٦٦١ - ص. ب (١٦١٥ - الجبيهة)
* الأردن - عمـان - وسـط البـلد - مجمـع الفحيص التجـاري- هـاتف: ٠٠٩٦٢-٦-٤٦٢٧٦٢٧
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com


بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

انهى أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية الآداب سلسلة محاضراته الموجزة عن الحروب الصليبية ، على طلبة قسم التاريخ بقوله : ذلكم هو المغزى الذي يكمن في أعماق التجربة المرة التي استغرقت قرنين من الصراع .. ان الغزو الاستعماري ، أيا كان لونه ، لابد من ان يؤول إلى الانحسار مهما طال الزمن ، وان يستعيد المغلوب حقه كاملا شرط ان يتحقق بعوامل الانتصار ، وهي كثيرة ومتشعبة _ كما رأيتم _ لكن أبرزها ولا ريب اثنان : حماية الذات الحضارية من التفكك والذوبان والدمار .....

وتوفر القيادة الصالحة التي تتعاطف مع الجماهير وتعرف كيف تقودها إلى مشارف النصر .

ولقد تحدثنا كثيرا عن العامل الأول .. أما الثاني فقد عرفتموه عرضا من خلال استعراضنا السريع لبعض قيادات المقاومة الإسلامية عبر قرني الصراع ضد الغزاة الصليبيين .. لكن هذا وحده لا يكفي .. وإذا كنتم تعرفون الشيء الكثير عن الناصر صلاح الدين ، لكثرة ما كتب عنه ، فان قيادات أخرى لم يتح لكم ان تعرفوا عنها ما يكفي لسبر أبعاد دورها في التجربة .. ما الذي نعرفه عن سقمان ابن أرتق واخيه ايلغازي وابن اخيهما بلك بن بهرام ، من قادة ديار بكر في الجزيرة الفراتية ، وهم قد لعبوا دورا خطيرا في فجر المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ؟ ما الذي نعرفه عن كربوقا وشمس الدولة ومودود والبرسقي من حكام السلاجقة في الموصل الذين تكسرت على شفرات سيوفهم محاولات الغزاة لاقتحام العراق والوصول إلى بغداد ؟ ثم هل نعرف ما فيه الكفاية عن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود اللذين وحدا الارض الإسلامية في خط المجابهة ضد الغزاة ، وحررا مساحات واسعة منها ، ومهدا الطريق للناصر صلاح الدين كي يصل إلى فلسطين ويدخل القدس ؟

تساءل احد الطلاب : الا يمكن ان نحظى بساعات أخرى لمواصلة الحديث عن الحروب الصليبية من اجل القاء مزيد من الضوء على مجراها ومغزاها ؟ اجاب الاستاذ : ان الوقت لا يسمح بذلك ، فعلينا ان ننتقل إلى مواضيع أخرى ، وما تبقى من محاضرات لا يكاد يكفي لتغطية مفردات المادة المتبقية ..

قال الطالب : اننا نلمح ارتباطا وثيقا في مجرى الوقائع ، وفي المغزى ، بين تجربتنا مع الغزوتين الصليبية والصهيونية .. واننا نلّح على ان نعرف الكثير عن التجربة الاولى كي يعيننا الفهم على مجابهة تحديات التجربة الثانية ، فالتاريخ كله _ كما يقول كروتشه _ تاريخ معاصر ...

رد الاستاذ : هذا ما اتمناه .. ولكن .. الوقت .

قال طالب اخر : ثمة حل يمكن ان يعيننا على تحقيق مبتغانا ..

تساءل الاستاذ : كيف ؟

اجاب الطالب: ان نتلقى محاضرات اضافية خارج نطاق الدروس المنهجية .. في أي مكان وفي أي زمان تشاء ..

عبّر كثير من الطلبة عن ارتياحهم لهذا الاقتراح ، وقال الاستاذ : انني على استعداد لاستقبالكم في غرفة الاساتذة في القسم .. فإذا اتيح لنا ان نتحدث في الموضوع ساعة وأحدة في اليوم ، كان بمقدورنا ان نضع ايدينا على خطوطه العريضة قبل ان ينتهي الموسم الدراسي.

قال الطلاب بصوت واحد : فلنتوكل على الله .. وغدا سنكون عندك في الساعة الحادية عشر حيث فراغنا اليومي ..

قال الاستاذ : أؤكد مرة أخرى على ان الموضوع اوسع بكثير من ان نغطيه في هذا الوقت المحدد .. ومن اجل تجاوز المشكلة فانني اقترح ان نقف عبر الساعات القادمة لالقاء الضوء على ادوار اؤلئك الذين لم يسلط عليهم قدر كاف من الاضواء

من قادة المقاومة الإسلامية في عقودها الاولى .. ان علينا ان نعرف ما الذي فعلته هذه القيادات .. وكيف ؟ ان تحرير القدس على يد الناصر صلاح الدين ، بل ان استرداد اخر المعاقل في فلسطين على ايدي الذين جاءوا من بعده ، لم يكن كله قفزة في الفضاء .. فليس ثمة حدث تاريخي خطير إلا وتمتد جذوره في الاعماق .. وان الانهار الكبيرة لهي حصيلة روافد وجداول تنصب فيها من أماكن شتى .. اننا نريد في محاضرتنا القادمة ان نبحث عن الجذور .. ان نعاين الروافد والجداول التي اسهمت في صنع مجرى النهر الواسع .. العميق ..

قال احد الطلاب : ذلك ما كنا نتمناه ..

استمر الاستاذ : وسنقف بعدها عند نور الدين .. عند تجربة واحدة فحسب .. لكي نتوغل فيها عمقياً .. ونسبر اغوارها التي صنعت جانباً كبيرا من النصر .. انها تجربة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي .. فلا أظنكم تعرفون عنها الكثير ..

اجاب احد الطلاب : بالضبط .. فكل الذي نعرفه عن هذا الرجل انه تولى حكم حلب والمواقع المحيطة بها عام ٥٤١ هـ بعد مقتل ابيه عماد الدين زنكي ، واقتسام امارته الواسعة في الموصل والجزيرة وشمالي الشام بين ابنائه .. وقد استطاع عبر فترة حكمه التي استغرقت حوالي الثلاثين عاما (٥٤١ _ ٥٦٩ هـ) ان يحقق سلسلة من الانتصارات الحاسمة ضد الصليبيين في الشام وفلسطين ومصر ، وان يقيم الوحدة المرتجاة بين مصر والشام ويمهد الطريق لتحرير فلسطين من خلال خليفته وساعده الايمن الناصر صلاح الدين .

وقال طالب اخر : وقد عرفنا شيئا عن تفاصيل الانجازات السياسية والعسكرية التي نفذها الرجل ..

اردف الاستاذ : هذا فضلا عن كثرة الدراسات والمؤلفات التي صدرت عن هذا الجانب من حياة نور الدين محمود ... ولكن الذي لا نعرف عنه شيئا يذكر انما هو معطيات الخطوط الخلفية للجبهة .. ما الذي حدث هناك على مستوى القيادة والقواعد

فمكن الرجل وامته على السواء من تحقيق تلك الانتصارات الحاسمة ؟ انني اريد عبر عدد من اللقاءات القادمة ان اتجول معكم في هذه الخطوط .. ولكن _ طبعا _ ليس قبل ان نعرف شيئا عن قادة المقاومة الإسلامية الذين سبقوه على الطريق ..

لقد كان نور الدين محمود انقلابيا من طراز اول ، وهو يذكرنا بشخصية عمر بن عبد العزيز إلى حد كبير .. ولقد حقق بانقلابيته التي غطت جل مساحات الحياة ، وباستمداده من منابع الاسلام الاصيلة في القران والسنة .. (الأرضية) الجهادية التي تبعث (المجاهد) إلى الوجود وتمكنه من اداء دوره في احسن الظروف واكثرها قدرة على شحن طاقاته ، لاسيما وان الجهاد لا يتحقق مفهومه الاصيل إلا بوجود شروط معينة ابرزها القيادة المخلصة الملتزمة ، الواعية ، الذكية ، والتماسك الجماهيري ، والدفع الروحي الدائم ، والرؤية الموضوعية .. ولقد حقق نور الدين هذه الشروط وتحقق بها ، فكسب اهميته الكبرى دون عشرات غيره من القادة والأمراء ، جاءوا قبله أو بعده ، ولم يحققوا شيئا على هذا المستوى الذي هو أساس النجاح الحقيقي في تاريخنا كله ..

لقد وضع الرجل يده منذ البداية على المنهج الصحيح للعمل : ان أي تغيير في الخارج ، في التاريخ ، لا يتحقق إلا بانقلاب في الداخل ، في الذات .. بممارسة عملية (التغيير الذاتي) وفق المؤشر القراني (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .. ولم تقف عملية التغيير الداخلي هذه عند حدود القمة .. بل انساحت إلى القواعد .. إلى الجماهير التي تظل قيم الإسلام كامنة في اعماقها حتى تتحرك بضربة حادثة ما ، أو اسوة قيادة مخلصة ، أو بروز تحد خطير ، لكي ما تلبث ان تسهم في صنع الحركة التاريخية اسهاما اصيلا ..

نظر الاستاذ إلى ساعته وختم حديثه قائلا : ها هي اللحظات الاخيرة للمحاضرة توشك على الانتهاء .. وسنبدأ منذ يوم غد باذن الله لقاءاتنا اليومية كما اتفقنا لكي نواصل الحديث ..

تساءل احد الطلاب : حبذا لو نعرف الزاوية التي سنبدأ منها لكي نكون على بينة من الأمر .

اجابه الاستاذ ، وهو يقفل حقيبته تهيؤا لمغادرة القاعة : سنبدأ رحلتنا مع قادة المقاومة الإسلامية الذين مهدوا الطريق لنور الدين لكي نسلط عليها الاضواء بما فيه الكفاية ، ثم نتحول _ بعد عدد من اللقاءات _ إلى نور الدين محمود نفسه لكي نرحل في شخصيته ، في تكوينه الذاتي ، متابعين ملامح التجربة هناك في الاعماق ، صاعدين بعدئذ باتجاه الساحات الخارجية للتعرف على الانجازات في كافة ميادين الحياة .. فالى اللقاء ..

رد الطلاب بصوت واحد : إلى اللقاء ...

(٢)

في الموعد المحدد تماما تدفق الطلاب على غرفة استاذهم .. كان زملاؤه قد غادروها لالقاء محاضراتهم في هذه القاعة أو تلك .. فتوزع الطلبة على المقاعد الشاغرة هنا وهناك .. حتى إذا خفّت حدة الاصوات ، واعرب الجميع عن استعداداهم للانصات، انطلق الاستاذ قائلا : سوف ندخل الموضوع مباشرة ما دمنا قد تحدثنا عن المقدمات في اللقاء الماضي ، وما دام ان الوقت لا يسمح بالاستغراق فيها ...

قال احد الطلاب : اننا مشوقون حقا لكي نعرف شيئا عن قادة المقاومة الاوائل في فجر الغزو الصليبي .. فاؤلئك لهم فضل الريادة ، وما قيل عنهم أو كتب لا يكاد يذكر ..

اردف الاستاذ : لقد شقوا طريقا صعبا ، وكان عليهم ان يتلقوا عنف الضربة المفاجئة وان يصمدوا لها ، فضلا عن تجميع الطاقات وحشدها للرد على التحدي الخطير .. ولكن المرء ليحار من اين يبدأ الحديث ، فهم _ بحمد الله _ كثيرون تتداخل بهم الأماكن والازمان ، إذا كان لنا ان نتابع التقسيم الجغرافي حيث كانت قيادة المقاومة ، وعقلها المفكر ، واداتها الضاربة ، تنتقل من مكان إلى اخر اعتمادا على مجموعة من العوامل الموثرة .. فكانت تستقر حينا في أقاصي الجزيرة الفراتية ، في المنطقة المعروفة باسم ديار بكر .. وكانت تتحول حيناً اخر إلى الموصل ، ثم ما تلبث ان ترجع ثانية إلى الجزيرة ، أو تعبر الفرات لكي تنطلق من حلب متجهة بعدها إلى دمشق فمصر ..

والاحرى ان نعتمد التسلسل الزمني في متابعة ادوار هذه القيادات عبر ما يقرب من نصف القرن من الزمن (٤٨٩- ٥٤٣ هـ) وفي المرحلة التي اصطلح عليها المؤرخون باسم (الحرب الصليبية الاولى) .. نتابع ادوار هذه القيادات بغض النظر عن مواقعها الجغرافية والاطر السياسية التي انطلقت منها .. فعن طريق المتابعة الزمنية يمكن ان

نمسك بخيط الاحداث وان نمتلك قدرة اكبر على تصور حجمها ومتابعة معطياتها .. فما رأيكم ؟

قال الطلاب جميعا : هذا بالضبط هو ما نرجوه .

تابع الاستاذ : لقد تولت الموصل في البدء عبء قيادة المقاومة ، باعتبارها قاعدة الدولة السلجوقية المتقدمة ، وموقعها الستراتيجي القريب من ساحة الاحداث .. ولقد رمى السلاجقة ، ومن ورائهم جماهير المنطقة ، بثقلهم تحت قيادة ولاتهم هناك ، ومنذ الايام الاولى للغزو الصليبي حيث كانت (انطاكيا) في اقصى شمال غربي الشام، البداية التي اراد الغزاة كسرها للتدفق إلى بلاد الشام وفلسطين ... منذ تلك الايام وطيلة العقود التالية شهدت الساحة عددا من قادة المقاومة كان ابرزهم ولا ريب قوام الدولة كربوقا (٤٨٩ – ٤٩٥ هـ) ومودود بن التونتكين (٥٠٢ – ٥٠٧ هـ) واق سنقر البرسقي (٥١٨ – ٥٢٠ هـ) ثم عماد الدين زنكي (٥١٢ – ٥٤١ هـ) ..

تساءل احد الطلاب : ولكننا نلمح انقطاعا زمنيا في المقاومة بين سنتي ٥٠٧ و ٥١٨ هـ فهل كانت حركة الجهاد قد توقفت أو اصيبت بالشلل عبر هذه السنين ؟

اجاب الاستاذ : على العكس ، فقد تحولت القيادة عبر هذه السنين إلى اقاصي الجزيرة الفراتية ، إلى ديار بكر ، حيث ظهرت سلالة الاراتقة التي قدمت مع السلاجقة واستقرت بحشود مقاتليها الشجعان في ذلك الاقليم لكي ما تلبث ان تتولى كبر المقاومة التي برز من بين ابنائها – يوم ذاك – كل من سقمان بن ارتق مؤسس الكيان الارتقي في ديار بكر ، واخيه ايلغازي ، وابن اخيهما بلك بن بهرام .. وقد حقق هؤلاء القادة الثلاثة عبر الفترة ٤٩٧ – ٥١٨ هـ سلسلة من الانتصارات الحاسمة في فجر الغزو الصليبي لا تقل في اهميتها ونتائجها الستراتيجية عما حققه رفاقهم في الموصل .. وسنجيئ اليهم – باذن الله – حينما ياتي دورهم في التسلسل الزمني للمقاومة .. فلنرجع الان إلى نقطة البدء .. إلى قوام الدولة كربوقا وهو يزحف بقواته من الموصل لدرء الخطر عن بوابة بلاد الشام : انطاكية ..

فما ان تلقى الرجل نبأ هجوم الصليبيين على انطاكية ، واستنجاد صاحبها به ، حتى جمع قواته وتوجه صوب الفرات ، لكنه سرعان ما اضاع كسبه هذا لعامل الزمن عندما توقف الاسابيع الطوال عند اسوار الرها المنيعة في ديار بكر في محاولة منه لتحريرها من قبضة الغزاة ..

إذ لم يغب عن المسلمين عامة وكربوقا على وجه الخصوص حقيقة ان امير الرها الصليبي سرعان ما غدا قوة لابد من الاهتمام بأمرها ، لذا اجمعوا على تدميره قبل ان يستفحل خطره .. ولم يتخل كربوقا عن هدفه إلا بعد ان ظل ثلاثة اسابيع يهاجم اسوار الرها دون جدوى .. ومن ثم استانف مسيره صوب انطاكية .. وفي مرج دابق اجتمعت معه عساكر الشام وعدد من أمرائه وانطلقوا جميعا إلى هدفهم .كان الصليبيون انذاك قد احكموا تطويق انطاكية، وازاء ذلك حشد اميرها المسلم داخل الحصن كل ما لديه من قوات ، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية ، وشرع في توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل . ولم يسع الغزاة ، وقد احسوا باحتمال وقوعهم بين شقي الرحى ، إلا ان يعززوا هجومهم بالقيام بنشاط سياسي واسع النطاق استهدف تمزيق وحدة المسلمين وكسب بعض قياداتهم ، فدخلوا في مفاوضات مباشرة مع ألفاطميين في مصر حصلوا من خلالها على عدد من النتائج المهمة لصالحهم ، بعد ان وعدهم حلفاؤهم الجدد بالعمل سوية من اجل اقتسام بلاد الشام ، كما انهم بعثوا إلى امير دمشق يطلبون منه التزام الحياد واعلموه بانهم لم يتخذوا خططا لمهاجمة بلاده ، الا ان الامير لم يستجب لرغباتهم ..

ظل امير انطاكية صامدا ، رغم ما تعرض له من ضغط شديد ، وازدادت مخاوف الصليبيين من قرب قدوم الجيش القادم لانقاذ المدينة ، وارسلوا إلى الامبراطور البيزنطي يطلبون نجدته .. إلا ان ما ارتكبه كربوقا من اخطاء في التقدير هيّأ للحملة الصليبية ألفرصة للتنفس والراحة ، وكان ابرز تلك الاخطاء تاخره عند اسوار الرها – كما ذكرنا – الأمر الذي اتاح للغزاة تشديد قبضتهم على المدينة واكتساحها وفق خطة متفق عليها مع عدد من النصارى والارمن المحليين ، وقتل عدد كبير من

المسلمين، ونهب المدينة واستباحتها .. وما ان وصل إلى البلاد المجاورة خبر ألفوضى والخراب اللذين حلا بانطاكية حتى هرب المسلمون منها وتسلمها الارمن ..

ما ان علم كربوقا وحلفاؤه بنبأ سقوط انطاكية حتى توجهوا مسرعين إلى هناك وعسكروا قريبا من اسوار المدينة واكتشفوا ان القلعة لا زالت مستعصية على الغزاة .. وما لبث ان نشب القتال بين الطرفين ، وسقط عدد كبير من الغزاة .. إلا ان كربوقا ما لبث ان قرر الاكتفاء بتضييق الخناق على اعدائه ثم توجيه الضربة الحاسمة ضدهم حين يضعفهم الجوع .. واستبد بهؤلاء اليأس ، واخذ الطعام يتناقص وغلت الاسعار غلاء فاحشا ، وظن عدد كبير من ألفرسان ان (ستيفن بلوا) القائد ألفرنسي ، لم يتخذ بفراره الا احسن السبل واسلمها ، فتسللوا إلى البحر هم الاخرون ..إلا ان حلف كربوقا ما لبث ان تعرض لتمزق خطير بسبب عدم مرونته من جهة ، والاحقاد الشخصية التي تناوشت حلفاءه ، وما رافقها من شكوك ، من جهة أخرى .. واذا كنا نستطيع التماس بعض الاعذار لتصرفات كربوقا الذي سعى لاستغلال سلطته واستخدام اساليب الشدة من اجل تماسك حلفه ، إلا اننا لا يمكن ان نجد أي عذر لتصرفات سائر حلفائه من الأمراء الذين نسوا هدفهم المشترك ، ولم تكن تهمهم في تلك الساعات الحرجة سوى مصالحهم الخاصة وشفاء احقادهم المتاصلة ..

لم تكن متاعب كربوقا مجهولة لدى قادة المسلمين الذين حاولوا ان يحملوه على التخلي عن الحصار ، إلا انه اصر على وجوب استسلام عدوه دون قيد أو شرط ، على الرغم من تزايد ضعف جيشه .. وحينذاك بدأ الصليبيون يتسللون فرادى إلى خارج اسوار انطاكية على مرأى من قوات المسلمين .. وطلب احد الأمراء من كربوقا ان يسرع بقتل كل من يخرج ، إلا ان كربوقا مارس خطأ اخر عندما اصدر اوامره بعدم معاجلتهم حتى يتكامل خروجهم ، معتقدا ان بمقدوره انزال ضربة ما حقه بهم في اللحظة المناسبة .. غير انه حينما شاهد خصومه في كامل عدتهم ، اخذ يتردد وبعث اليهم من قبله رسولا بعد فوات الاوان ، يعرض عليهم استعداده لمناقشة شروط الهدنة.. غير انهم تجاهلوا عرضه ومضوا في تقدّمهم ..

تساءل الاستاذ وهو ينظر إلى ساعته : ما الذي حدث بعد ذلك ؟ وعلى أي الفريقين دارت الدائرة ؟ ذلك ما سنتحدث عنه في بدء لقائنا القادم ، حتى إذا ما استكملنا الحديث تحولنا إلى قائد اخر باذن الله ...

(٣)

في اليوم التالي يتمّ لقاء جديد بين الطلبة واستاذهم ... ويسارع احد الطلبة فيسأل: لقد تركتنا بالامس معلّقين بين اليأس والرجاء .. ترى هل قدّر لكربوقا ان ينتصر على خصمه ؟ اجاب الاستاذ ، وهو يقلب صفحات كتاب جديد عن الحروب الصليبية : كلا .. ثم واصل مبتسما : ان النتائج تعرف باسبابها ، ولقد تهيات الاسباب كما رأيتم .. ولكن يبدو ان الهزائم لابد منها احيانا .

انها التجربة التي تتعلم منها الامم والشعوب والقيادات ، وهي النار التي تميز وتمحص .. لابد من (أحد) في كل مرحلة من مراحل تاريخنا ، لا لكي نستسلم لليأس ونعتاد الهوان .. ولكن لكي نتعلم .. لكي نتجاوز الهزيمة ونتحرر من اسقاطاتها .. وننطلق إلى اهدافنا برصيد اكبر من الخبرة والثقة والشد الروحي .. وكلنا نعلم ان الرسول القائد عليه السلام انطلق باصحابه ، ولم يمض على هزيمة احد يوم واحد .. لمطاردة المشركين كرة أخرى .. وتحدّيهم .. ان الهزيمة التي مني بها كربوقا اعقبت بعد سنوات قلائل عناقيد من الانتصارات مترعة بالحلاوة ..

قال احد الطلاب ضاحكا : يبدو انه مكتوب علينا الا نستذوق طعم العنب إلا بعد ان يضرس الحصرم اسناننا ..

اجاب الاستاذ : ربما .. ولكن ألا ترون ان الحصرم الذي اضطر كربوقا وجنده إلى اكله كان قاسيا جدا ؟

تساءل جماعة من الطلبة : كيف ؟

قال الاستاذ : اشتد القتال في الجبهة الرئيسية ، ولم تستطع الرماة المسلمون وقف زحف الصليبيين ، واخذت صفوفهم تضطرب ، وامعن اعداؤهم في الضغط عليهم، وزاد في مساعدتهم ما قرره كثير من حلفاء كربوقا من التخلي عنه ، إذ انه إذا ما احرز النصر فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم اول من يدفع الثمن باهضا ، وترتب على ذلك ان ساد الذعر بين قوات المسلمين ، فاشعل كربوقا النيران

في الاعشاب الجافة أمام صفوف عساكره كيما يعوق تقدم الصليبيين دون جدوى ، وراح في الوقت نفسه يسعى إلى اشاعة الامن في صفوف قواته ، ولكن تتابع انسحاب حلفائه اوقع جيشه فريسة للفوضى والخوف .. وبدأت المطاردة القاسية ، وحصد من المسلمين عدد كبير .. أما اولئك الذين التمسوا ملاذا في قلعة انطاكية ، فجرى تطويقهم ولم يلبثوا ان هلكوا ، ولقي كثير من الباقين مصرعهم ، اثناء فرارهم على ايدي السريان والأرمن المحليين في الريف .. وعاد كربوقا إلى الموصل في فلول جيشه .. وضاع إلى الابد ما كان له من سلطة ومكانة ، أما نائب كربوقا في قلعة انطاكية فقد فاوض الصليبيين واعلن استسلامه لهم حيث سمح له ولحاميته بمغادرة المكان دون التعرض لاذى ، وتحول هو وجماعة من اصحابه إلى النصرانية وانحازوا إلى جيش عدوهم.

تنهد عدد من الطلبة ، بينما واصل الاستاذ حديثه : يبدو لنا ، بعد استعراض تفاصيل الدور الذي لعبه كربوقا في مجابه الهجوم الصليبي على المعاقل الإسلامية الاولى ، انه بذل ما في وسعه للتصدي لهذا الخطر قبل ان يتمكن من تثبيت اقدامه في الارض الإسلامية ، فلم يأل جهدا في تهيئة كافة العوامل العسكرية : الزمنية والبشرية وألفنية ، من اجل تحقيق هدفه ذاك . إلا ان ظروفا شديدة التعقيد ، اسهم هو – باخطائه السياسية والعسكرية – في تشكيل بعضها ، واسهم أمراؤه وحلفاؤه – بحرصهم على مكاسبهم الاقليمية وتغلغل الحقد والتنافس الشخصي بينهم – في تشكيل معظمها ، هذه الظروف هي التي احبطت محاولة كربوقا وانتهت بها إلى هذا المصير المفجع الذي كانت له تاثيراته السيئة ونتائجه الخطيرة على مستقبل الحرب الصليبية بشكل عام .

فلقد استطاع الغزاة ، اثر هزيمة كربوقا ، ان يثبتوا اقدامهم في بلاد الشام، كما كانوا قد ثبتوها قبيل ذلك في منطقة الجزيرة الفراتية عن طريق (الرها) ، وان يتخذوا من انطاكية – امارتهم الثانية بعد الرها – قاعدة للانطلاق نحو الجنوب وفرض سيطرتهم على المواقع الممتدة على الطريق إلى القدس .. وليس استيلاء الغزاة

على القدس ، وانزالهم باهليها تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها عشرات الالاف من السكان المجردين عن السلاح باعتراف المؤرخين اللاتين انفسهم ، سوى نتيجة مباشرة للهزيمة التي مني بها المسلمون عند اسوار انطاكية . ذلك ان هزيمة كهذه لم تعط الغزاة فرصة التماسك والانطلاق ثانية إلى اهدافهم فحسب ، بل انها اصابت وحدة القوى الإسلامية في المنطقة بضربة قاصمة ، فمزقتها وشلتها عن العمل المشترك المنسق فترة من الزمن ، كان الصليبيون يجتاحون – خلالها – القرى والمدن والحصون.

بينما كان قادة المسلمين يجترون احقادهم ، ويسعون للحفاظ على اقاليمهم فحسب، في الوقت الذي كان المسلمون فيه قد شدهوا للانتصارات الصليبية المتلاحقة، تلك التي لم تجد ، بعد هزيمة كربوقا، اية محاولة لصدها عن المضي صوب هدفها المرسوم .

والحق ان اخطر ما ترتب على هزيمة المسلمين عند انطاكية هو الشلل الذي اصاب سياسة كربوقا وموقفه ازاء الخطر الصليبي الزاحف ، فلقد اصابته تلك الهزيمة ، بما حدث فيها من بوادر السلبية والانهزام لدى عدد من أمرائه ، والخيانة المكشوفة لدى عدد اخر ، برد فعل شديد صده عن التفكير الجاد في القيام باية محاولة جديدة لتزعم المقاومة الإسلامية في المنطقة ، والتصدي للزحف الصليبي السريع صوب الشرق والجنوب ، إلا ان هذه النتائج السلبية جميعا ، لن تصدنا عن محاولة تلمس ردود الفعل الايجابية التي تمخضت عن هزيمة انطاكية ، وما اعقبها من انتصارات صليبية احدثت هزّة عنيفة في ضمائر مسلمي المنطقة ونفوسهم ، وعمقت وعيهم السياسي ، وحركتهم لمطالبة جماعية موجهة إلى القوى الإسلامية الحاكمة ان تتخذ تدابير سريعة لوقف الهجوم الصليبي ، الأمر الذي دفع السلاجقة ، بعد سلسلة من الضغوط والاضطرابات العامة والتظاهرات الحاشدة ، إلى توجيه اهتمامهم صوب تلك الساحة ، ومن ثم اتيح لولاة الموصل الذين اعقبوا كربوقا ، ان يتولوا – ثانية – زمام المبادرة ، وان يدخلوا ، قادة وحلفاء ، مع سائر أمراء المنطقة في معارك متتالية ضد الغزاة ، وان يحققوا خلال صراعهم ذاك ، انتصارات بالغة الاهمية مكنت العالم

الإسلامي من ان يقف على قدميه ثانية ، وان يتحول من مراكز الدفاع إلى الهجوم ، كما فتحت الطريق أمام ظهور قيادات اشد حنكة ودراية وتمكنا ، اخذت على عاتقها – فيما بعد – السعي الدائب ، المنظم ، من اجل طرد الغزاة وارغامهم على العودة – ثانية – من حيث جاءوا ..

تساءل احد الطلاب : واي من هولاء القادة كان له شرف السبق في الرد على هزيمة انطاكية ومجزرة القدس ؟

اجاب الاستاذ : اعتقد انكم تذكرون كيف كنا قد ألمحنا في لقائنا السابق إلى ان قوة اسلامية قدمت مع السلاجقة ، استقرت في اواخر القرن الخامس الهجري، بقيادة العائلة الارتقية ، في ديار بكر ، في اقاصي شمالي الجزيرة الفراتية على حدود بلاد الاناضول ، حيث اسست هناك اكثر من كيان سياسي ، وحيث لعب عدد من قادتها دورا خطيرا في فجر المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي

رد الطلاب : لا زلنا نذكر ذلك ..

وواصل الاستاذ حديثه : كان سقمان بن ارتق اول هؤلاء .. وقد اتيح له في عام ٤٩٧ هـ ، أي بعد اقل من عقد من الزمن على بدء الغزو الصليبي ، ان يلعب دورا قياديا في معركة فاصلة ضد الغزاة ، عدها المؤرخون من الشرق والغرب ، المعركة الحاسمة الاولى في تاريخ الصراع بين الطرفين ، بعد معركة انطاكية ، تلك هي معركة(البليخ) ..

في ذلك العام تمكن سقمان من عقد تحالف عسكري مع شمس الدولة ، والي الموصل السلجوقي ، لمجابهة خطر التوسّع الصليبي الذي اوشك على دق أبواب العراق .. وكان للانتصارات السريعة التي احرزها الصليبيون ، وتقدمهم للاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام ، مستغلين فرصة الصراع بين أمراء المسلمين ، فضلا عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين مسلمي

فارس والعراق والشام ، واعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل ، وتأمين امارتهم في الرها ، والسيطرة على اقاليم الجزيرة..

لقد كان لهذه العوامل جميعا الاثر الحاسم في تناسي كل من سقمان ووالي الموصل خلافاتهما القديمة والعمل سوية لايقاف تقدم الغزاة .. فارسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حران ، ويعلمه انه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه .. كما يقول المؤرخ ابن الاثير .

واذ انتهت الساعة المحددة ، توقف الاستاذ عن حديثه وختمه بقوله : سنعرف غدا ما الذي حققه هذان الرجلان باذن الله ..

(٤)

قبل ان يكتمل جمع الطلبة في غرفة استاذهم ، استعجله احدهم قائلا : ما اشد رغبتنا في ان نعرف شيئا عن مجريات اللقاء الحاسم على ضفاف البليخ ، علنا نمحو طعم المرارة التي تجرّعناها لدى الحديث عن هزيمة انطاكية ..

تريث الاستاذ قليلا ، وما ان اكتمل الطلبة عدداً حتى قال ، وهو يشير إلى موقع على خارطة واسعة علقت إلى يمينه : اجتمع القائدان المسلمان على الخأبور عند راس العين ، واكدا تحالفهما ومن ثم اتجها للقاء الصليبيين .. كان مع سقمان سبعة الاف فارس ومع حليفه ثلاثة الاف عربا وتركا واكرادا .. وازاء ذلك دعم الصليبييون وحدتهم وتقدموا صوب حران بقيادة عدد من أمرائهم ، وعلى راسهم (بوهيموند) امير انطاكية ، وانضم إلى المقاتلين بطريك انطاكية وعدد كبير من الارمن ورجال الدين .. وكاد الصليبيون ان يستولوا على حران بعد وقت قصير من حصارها ، إلا ان الخلاف الذي نشب بين أمرائهم واصرار كل منهم على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها ادى إلى انقاذها.

وفي التاسع من شعبان ، وعلى ضفاف مجرى البليخ ، تم اللقاء بين الطرفين، واظهر المسلمون الهزيمة خدعة منهم ، فتبعهم الصليبييون مسافة فرسخين ، فاعاد المسلمون الكرة عليهم ، وابادوا عددا كبيرا من قواتهم ، ووضعوا ايديهم على مقادير كبيرة من الغنائم والاموال .. ووقع في الاسر عدد من أمراء العدو وقادته بينما تمكن الاخرون من ألفرار .. ولم يكتف سقمان بذلك بل اعقب ذلك بالقيام بمناورة بارعة ، إذ اخذ سلاح الصليبيين وراياتهم ، والبس جنده ملابسهم واركبهم خيلهم ، وجعل يهاجم حصونهم في ديار بكر فيخرج إليه صليبيّوها ظنا منهم ان اصحابهم قد انتصروا فيبيدهم سقمان ويستولي على حصونهم ، وقد تمكن بذلك من تحرير عدد من المواقع والحصون .. أما حليفة شمس الدولة فقد توجه إلى الرها : قاعدة الصليبيين في الجزيرة ، وفرض عليها حصارا دام اسبوعين دون ان يسفر عن نتيجة ، الأمر الذي اضطره للعودة ثانية إلى الموصل ..

تساءل احد الطلاب عن القيمة التاريخية لهذه المعركة .. فاجاب الاستاذ : لقد تمخضت معركة البليخ عن نتائج على مستوى كبير من الاهمية ، فقد اوقفت زحف الغزاة صوب الشرق ، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق واتمام سيطرتهم على اقليم الجزيرة ، كما خيبت مطامع (بوهيموند) امير انطاكية في السيطرة على حلب وتحويل امارة انطاكية إلى دولة كبيرة .. وبالمقابل فقد شجعت نتيجة المعركة امير حلب ، الذي كان على راس قواته عند الفرات يتابع سير المعركة ، على القيام بسلسلة من الهجمات على مراكز الصليبيين المحيطة بحلب ، استطاع خلالها ان يجلوها عنها بمساعدة اهاليها من المسلمين الذين انقضوا على حكامهم الغزاة. فامنت اعمال حلب ورجع اهلها إليها وامتدت غارات قواتها إلى انطاكية ..

وكان لمعركة البليخ نتائج سيئة بالنسبة لأمارة الرها الصليبيية كذلك ، إذ انها اوضحت احتمال سقوطها على ايدي المسلمين نظرا للضعف الذي اصابها اثر تلك المعركة، ولتعرضها لكثير من المتاعب الداخلية .. هذا إلى ان المعركة ادت إلى القضاء على حلم الغزاة بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة واسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب . وقد اوضح المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي خطورة النتائج التي تمخضت عنها معركة البليخ بقوله ((كان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيأ مثله ، وبه ضعفت نفوس الافرنج وقلت عدتهم وفلت شكوتهم ، وقويت نفوس المسلمين وأرهفت عزائمهم .. وتباشر الناس بالنصر – على الاعداء – وايقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم)) .

وهكذا قدر لسقمان ، بتحالفه مع والي الموصل السلجوقي ، ان يلعب دورا خطيرا في تاريخ الحروب الصليبية وان يقدم ، وحليفه ، للعالم الإسلامي اول نصر حاسم على الغزاة فتح به الطريق لظهور قيادات اسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية ، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي وانتهت بالناصر صلاح الدين عبر ايلغازي وبلك الارتقيين ، واق سنقر البرسقي ، وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود.

هذا وقد استطاع سقمان في نفس العام (٤٩٧ هـ) ان يسحق قوة صليبية خرجت من الرها واستهدفت الرقة على الفرات بعد قتال شديد .. وما ان تلقى في العام التالي دعوة من فخر الملك بن عمار ، امير طرابلس ، لنجدته ضد الصليبيين الذين قاموا بهجوم ضد طرابلس ، حتى خف سقمان لمعونته ، وبينما هو يتجهز اتاه كتاب من امير دمشق يخبره فيه انه مريض وقد اشفى على الموت ، وانه يخاف ان مات وليس في دمشق من يتولاها ان يستولي الصليبيون عليها ، ويستدعيه ليوصي إليه وبما يعتمده في أمر الدفاع عن المدينة .

فلما إطلع سقمان على الكتاب اسرع في زحفه عازما على دخول دمشق ومن ثم التوجه إلى طرابلس لاجلاء الصليبيين عنها .. لكن وفاته في الطريق حالت دون تنفيذ هذه المشاريع التي كان من المرجح ان تحدث تاثيرا بالغ الاهمية وتعطي لسقمان مركزا قياديا اكثر اهمية ..

ومن الجدير بالذكر ان اصحاب سقمان اشاروا عليه وهو يعاني المرض في الطريق ، بالعودة إلى مقره في ديار بكر ريثما يشفى .. اتدرون ماذا كان جوابه ؟ ((بل اسير فان عوفيت اتممت ما عزمت عليه ، ولا يراني الله تثاقلت عن قتال الكفار خوفا من الموت .. وان ادركني اجلي كنت شهيدا سائرا في جهاد)) ..

ذلك هو احد مفاتيح النصر الكبيرة ، وبها ملك المسلمون العالم .. كان احدهم يستحيي ان يتثاقل عن قتال العدو خوفا من الموت .. وكانت اسمى أمانيهم ان يموتوا شهداء في سوح الجهاد ..

تساءل الطلاب : وهل توفي بعد ذلك بقليل ؟

اجاب الاستاذ : بعد يومين فقط ، وحمله اصحابه عائدين إلى ديار بكر ..

قال الطلاب بصوت واحد : رحمه الله ..

وتابع الاستاذ : بعد وفاته تعرضت القيادة الارتقية في ديار بكر إلى خلافات داخلية ، وآل الأمر بعدها في القسم الاكبر من الامارة إلى اخيه ايلغازي القادم من

بغداد .. ولم يتح لهذا ان يلعب دوره الخطير في المقاومة إلا بعد اكثر من عقد من الزمان كانت قيادة حركة الجهاد قد عادت خلالها إلى الموصل حيث برزت شخصية واليها السلجوقي : مودود بن التونتكين الذي ولي عليها بين سنتيْ ٥٠٢ و ٥٠٧ هـ ..

قال احد الطلاب : اننا لانكاد نعرف عن هذا الرجل شيئا ..

اجاب الاستاذ : رغم انه يحتل مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين ، ولقد اسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة اهمها ولا ريب الفترة المبكرة التي ظهر فيها ، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل اهداف المسلمين الكبرى ، وسياسته الداخلية العادلة السمحة ، وقدرته – بناء على ذلك كله – على تزعم حركة الجهاد وايجاد نوع من التنسيق ، ربما لاول مرة ، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد ، الأمر الذي لن نجده متبلورا وناضجا إلا لدى الاراتقة وزنكي فيما بعد .. واخيرا نجاحه في وضع الغزاة في مواضع الدفاع ، وتحقيقه عددا من الانتصارات جاء احدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين ، بعيدا عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل واعدائهم .. ثم جاء مقتله السريع ، اثر ذلك كله ، لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من ابطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الاولين ..

جال مودود بقواه الإسلامية ثلاث جولات ضد الغزاة ، كانت اولاها عام ٥٠٣ هـ بعد اشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل ، وبعد ان تلقى أمرا من السلطان السلجوقي بقتال الصليبيين . فبدأ مودود بتشكيل جبهة اسلامية ضمت عددا من أمراء المنطقة وحشدا كبيرا من المتطوعين .. واتفقت الاراء على بدء العمليات بمهاجمة الرها ومحاولة تحريرها .. فنزلوا عليها وشددوا الحصار ، فبعث اميرها يستنجد بملك بيت المقدس ، إلا ان هذا لم يتوجه للمساعدة إلا بعد انتهائه من احتلال بيروت وتوحيد أمراء الصليبيين في جبهة واحدة ومن ثم شخص صوب الرها .

وصلت الانباء إلى طغتكين امير دمشق فتحرك من هناك على راس قوات كبيرة نحو الفرات الذي لم يتمكن الغزاة من عبوره بسبب انتشار طلائع القوات الإسلامية في سائر المنافذ المؤدية إليه . ولما عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم قرروا فتح الطريق آمامهم ليتمكنوا من لقلئهم في السهول الممتدة شرقي الفرات .. وغدا سنعرف – ان شاء الله – ما الذي تمخضت عنه الاحداث ..

(٥)

بعد ان اكتمل جمع الطلبة ، واصل الاستاذ حديثه الذي قطعه بالامس حيث لم يسعفه الوقت .. قال : انهت القوات الإسلامية حصارها للرها ويمّمت صوب ارض حران حيث عسكرت هناك خدعة للصليبيين . واذ أدرك هؤلاء الهدف من هذه المناورة، ووردتهم انباء عن تحرك امير حلب لمهاجمة المواقع التابعة لانطاكية ، وتحرك المصريين لمهاجمة فلسطين ، ايقنوا خطورة الاشتباك مع القوات الإسلامية وقرروا الانسحاب من الجهات الممتدة شرقي الفرات صوب المواقع القريبة التابعة لهم ، وتعزيز الامكانيات الدفاعية للرها .. ولكن ما ان بدأ الغزاة بالانسحاب حتى نهض المسلمون في اثرهم وادركتهم طلائع القوات الإسلامية فتمكنت من قتل واسر واغراق عدد كبير منهم والاستيلاء على مقادير كبيرة من ميرتهم وأعتدتهم ..

وعاد المسلمون بعدها لحصار الرها ، إلا ان حصانة هذه المدينة واهتمام العدو بتموينها صد المسلمين عن فتحها ، فتركوا عليها قوة منهم لمراقبتها وعادوا إلى بلادهم مع حلول الشتاء ...

تساءل احد الطلاب : وماذا بصدد الجولة الثانية لمودود ؟

أجاب الأستاذ : كان ذلك بعد اقل من سنتين ، اثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من سكان حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد ، بعد ما رأوا من تمادي أميرهم (رضوان) في إذعانه للصليبيين ، والهزائم المتتالية التي مني بها مسلمو الشام والتي سقط على اثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء . وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها ، خلفاء وسلاطين ، بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي .. وقد أسرع الخليفة باعلام السلطان السلجوقي بما جرى وطلب منه الاهتمام بالأمر والاسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين ، فاصدر اوامره على ألفور إلى الامير مودود بتشكيل جبهة اسلامية جديدة . وقد تمكن الرجل ، في فترة قصيرة ، من تنفيذ الأمر وكسب عدد كبير من الأمراء

والمقاتلين . وبدات العمليات العسكرية بالاستيلاء على عدد من المواقع الصليبية شرقي الفرات ، توجه مودود بعدها إلى الرها لحصارها ، فلما اعيته بسبب تحصيناتها واستعداداتها الدفاعية ، تحول عنها ، إلى تل باشر كي يجر أعداءه إلى عبور الفرات فيتمكن منهم ، إلا ان هذا كان خطأ منه ، لان الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة و الاعتدة والاقوات إلى الرها ، فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بايدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها .

ولم يمض وقت طويل حتى استنجد أمير حلب بمودود واستدعاه لكي يعمل معه ضد المواقع الصليبية ، لكن دعوته لم تكن صادقة ، إذ لم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى اقفل رضوان بوجهها الأبواب ، واتخذ إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات. إذ أمر باعتقال عدد كبير من زعماء المدينة واتخذهم رهائن . ولم يسع مودود إلا ان يتحرك بجيشه جنوبا حيث أغار على عدد من المواقع الصليبية ، لكنه رفض ان يجره الغزاة إلى معركة حاسمة لم يكن مهيأً لها بسبب الخلافات التي بدأت تدب بين أمرائه ، وتناقص قواته يوما بعد يوم ، فما كان منه ، وقد آذن الشتاء بالحلول ، إلا ان يقفل عائدا إلى الموصل .

وما لبث مودود ان قام في اواخر العام نفسه (٥٠٥ هـ) بهجوم جديد على الرها معتمدا على نفسه فحسب هذه المرة ، بعدما جرعة حلفاؤه من مرارة في حملتهم المشتركة ذلك العام . وظل مودود على رأس قواته في المنطقة وتمكن من جني محصولاتها الزراعية لكي لا تذهب إلى اعدائه .

بعد عام واحد تلقى مودود رسالة من أمير دمشق (طغتكين) يستنجده فيها ضد (بلدوين) ملك بيت المقدس الذي كان قد تابع غاراته حينذاك ضد أمارة دمشق، واعمل في بلادها نهبا وتخريبا، حتى ان المواد الغذائية انقطعت عن دمشق وغلت بضائعها غلاء فاحشا .. ولم يتمهل مودود في تلبية طلب امير دمشق وتحرك غربا حيث انضم إليه عدد من الأمراء ، وعبر الفرات في أواخر ذي القعدة سنة ٥٠٦ هـ فتخوف الصليبيون لتحركه ، وأرسلوا إلى امير دمشق يبذلون له بعض الحصون على الا يتعرض

أي من الطرفين للآخر ، فلم يجبهم إلى ذلك ، الأمر الذي دفع ملك بيت المقدس إلى شن مزيد من الغارات على أمارة دمشق ، وما ان سمع أميرها نبأ اقتراب حليفه حتى خرج لاستقباله واتفق رأيهما على التوجه جنوبا للقاء بلدوين حيث نجحا في استدراج الملك شمالا صوب أراضي دمشق عند المجرى الأعلى لنهر الأردن ، وقد نسي ، ما اشتهر به من الحذر ، وكان اللقاء في المحرم من عام ٥٠٧ هـ قريبا من طبرية حيث اشتد القتال بعد ان قام امير دمشق بقطع الجسر ، وصبر الفريقان ، وما لبث المسلمون ان انزلوا بأعدائهم هزيمة ساحقة وراحوا يعملون فيهم قتلا وأسرا ، كما غرق عدد كبير منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن ، وأصيب ملكهم بجروح تسببت في وفاته بعد ان فقد نحو من ألفي قتيل ، وهناك التحقت بهم عساكر طرابلس وانطاكية بقيادة أميريهما الصليبيين اللذين كان الملك قد استنجد بهما قبيل المعركة ، الأمر الذي انقذ قوات بيت المقدس من كارثة محققة . وتبعهم المسلمون وأحاطوا بهم من كل ناحية ، بينما آوى الغزاة إلى جبل غربي طبرية وأقاموا هناك ستة وعشرين يوما ، والمسلمون إزاءهم يمطرونهم بالنبال ويمنعون التموين عنهم لكي يضطروهم إلى الخروج لقتالهم ، فلم يخرجوا ، الأمر الذي دفع المسلمين إلى انهاء الحصار والتوجه إلى بيسان حيث راحوا يهاجمون ويخربون المواقع الصليبية الممتدة بين عكا والقدس ويقتلون من يقع في أيديهم من الغزاة ..

أثبتت مملكة بيت المقدس عجزها عن الدفاع عن نفسها ، إذ سرعان ما اصبح الإقليم تحت رحمة المسلمين ، فهرب سكان المدن والقرى والفلاحون ولحقوا بالقوات الإسلامية ، وأصاب الافرنج – كما يقول مؤرخهم وليم الصوري – من الذل والانكسار والخوف ، ما جعلهم لا يجرؤون على مغادرة الحصون والاستحكامات . وسير مودود وحليفه رسولا إلى السلطان السلجوقي يبشرانه بما تم على أيديهما من فتح.. إلا ان بعد المسلمين عن بلادهم ، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم ، واشتداد البرد عليهم ، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في أواخر ربيع الأول، على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع ، وبعد ان يتلقى مودود

جواب السلطان على رسالته والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد .. إلا ان القائد المسلم ما لبث ان قتل في جامع دمشق على أيدي الباطنية أثناء خروجه عقب صلاة الجمعة ، الأمر الذي وضع حدا لخططه المشتركة مع حليفه امير دمشق في قلب فلسطين ، إذ شرعت قواته تتأهب للعودة إلى الموصل وغيرها من البلاد التي انطلقت منها لتنضوي تحت لواء مودود ..

تساءل عدد من الطلبة : وكيف كانت ردود الأفعال إزاء مقتل هذا القائد المجاهد ؟

أجاب الأستاذ : انتشرت- منذ اللحظات الأولى – شائعات تقول بان طغتكين هو الذي حرض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق ، ولما ساوره من القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان السلجوقي في دمشق ، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله ، ولم يحد من هذه الشائعات قيام امير دمشق بقتل الجاني تبرئة لنفسه ، لكن عددا من المؤرخين وعلى رأسهم ابن القلانسي وسبط بن الجوزي ينفيان بشدة هذه التهمة عن طغتكين ، وربما يكون رأيهما صحيحا لان هذه ليست أول ولا آخر مرة يتصدى فيها الباطنية – بسبب خلافات مذهبية أو سياسية – لاغتيال زعماء الجهاد ، فضلا عن ان انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على امارة دمشق قبل غيرها بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من إرباك وبما يقدمه لامارة دمشق من حماية ..

ومهما يكن من أمر فقد تأثر المسلمون لمصرع بطل من أبطال الجهاد اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته ، وحزنوا حزنا عميقا لاختفائه السريع ، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية ، وبعد الخطط التحريرية التي كان على اعتزام تنفيذها هناك . وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلا منذ فترات بعيدة ، ولم يهدّيء من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي اثخنته ، لكنهم ما ان سمعوا نبا استشهاده بعد ساعات قلائل حتى عادوا – ثانية – إلى ما كانوا عليه .

تساءل أحد الطلاب : والصليبيون ؟

أجاب الأستاذ : كان فرحهم مزدوجا ، فهم من جهة قد تخلصوا من خصم لدود، وهم من جهة أخرى قد انفردوا بأمير دمشق الذي اضطرته عزلته وشكوك السلاجقة به إلى مهادنتهم وعقد معاهدة معهم .

(٦)

بدأ الأستاذ حديثه بالتأكيد على ان مقتل مودود لم يوقف حركة المقاومة التي ما كان لها ان تتوقف ما دام ان الأرض الإسلامية قديرة دوما على العطاء .. انها تنبت القادة الذين يعرفون كيف يقودون جماهير أمتهم إلى مشارف النصر .. يتسلم الواحد منهم راية الجهاد وقبل ان يترنح ويسقط يكون قد تسلمها مقاتل جديد .. فها هو الأمير الارتقى ايلغازي (شقيق سقمان) يتولى قيادة حركة المقاومة من معقله في ديار بكر ، ويحقق عددا من الانتصارات الهامة ضد الغزاة كانت معركة (ساحة الدم) عام ٥١٣ هـ أخطرها وأكثرها حسما كما سنرى ..

وتساءل أحد الطلاب : ما الذي أعانه على ذلك بعد ان قضى السنوات الطوال في إقليمه البعيد ذاك ؟

أجاب الأستاذ : حلب .. دخول مدينة حلب في طاعته اختيارا .. وكلنا نعرف الأهمية البالغة التي تعنيها حلب بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الغزاة .. وذلك لما كانت تتمتع به من مركز ستراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والاقتصادية وخطوط المواصلات .. فهي تقع في مركز وسط حصين بين امارتين صليبيّتين هما الرها وانطاكية ، في نفس الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والاناضول وشمالي الشام وأواسطه ، مما يعد أساسا حيويا لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين . لذا كان دخول حلب من قبل أي قائد إسلامي بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوّء مركز القيادة في حركة الجهاد ، وذلك ما حدث بالنسبة لايلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام أولا ، والبرسقي وزنكي ونور الدين فيما بعد . فبحصول ايلغازي على حلب عام ٥١١ هـ تغير ميزان القوى في المنطقة وتمكن من توجيه ضربات حاسمة ضد الغزاة في شمالي الشام ، وعندما توفي عام ٥١٦ هـ تابع ابن أخيه بلك بن بهرام توجيه هذه الضربات حتى مقتله عام ٥١٨ هـ .. وهكذا تبوّأ الاراتقة مركز القيادة في حركة الجهاد طيلة تلك السنوات ..

قال أحد الطلبة متسائلا : وما الذي دفع حلب إلى ان تطلب الانضواء تحت قيادة ايلغازي ؟

أجاب الأستاذ : تدهور أوضاعها وتحالف أمرائها الضعاف مع الغزاة لحماية مصالحهم المحدودة .. وقد أدرك (روجر) امير انطاكية الجديد خطورة استيلاء الاراتقة على حلب بالنسبة للوجود الصليبي شمال الشام فقام بتقديم مساعداته وحمايته لأمرائها مقابل استيفاء الرسوم والحصول على الأموال .. واذ آدراك الحلبيون عدم جدوى بقاء مدينتهم على هذه الأوضاع القلقة ، رأوا ضرورة تسليمها لأمير مسلم ، ووقع اختيارهم على ايلغازي الذي كان ينتظر فرصة كهذه ، فتقدم إلى حلب عام ٥١١ هـ وتولى مقاليد الأمور فيها وفرض سيطرته على المواقع والحصون المحيطة بها ، ثم استخلف فيها أحد أبنائه وقفل عائدا إلى ديار بكر بانتظار الفرصة المناسبة لتوجيه الضربة ..

تساءل أحد الطلاب : وهل أتيحت له هذه ألفرصة ؟

أجاب الأستاذ : بعد اكثر من سنة على دخوله حلب .. حيث أخذت دمشق تتعرض – من جديد – لهجمات الصليبيين ، مما دفع أميرها (طغتكين) إلى توحيد العمل مع ايلغازي لمجابهة الخطر الصليبي على كل من حلب ودمشق . فقدم ايلغازي إلى دمشق بصحبة كبار أمرائه واجتمع بطغتكين . وكان الغرض من هذا الاجتماع – في البدء – مهاجمة صليبيي بيت المقدس اللذين تكررت غاراتهم على إقليم حوران في الجنوب ، ولكن ما لبث لقاؤهما ان أسفر عن عقد اتفاق ثنائي يقضي بحشد قواتهما والبدء بمهاجمة امارة انطاكية في الشمال لتخفيف ضغطها على حلب .. فعاد ايلغازي إلى ديار بكر في رمضان عام ٥١٢ هـ ليحشد قواته ، وسار طغتكين برفقته إلى حلب ليشرف معه على عملية استدعاء المقاتلين ، ومن ثم عاد إلى دمشق على أمل اللقاء بحليفه بعد ان يتم كل منهما حشد قواته كي يبدآ عملياتهما ضد صليبيي انطاكية ، وحدد شهر صفر من عام ٥١٣ هـ موعدا للاجتماع ..

تساءل أحد الطلاب : وهل كان الرجلان عند عهدهما ؟

أجاب الأستاذ : بالنسبة لايلغازي .. نعم .. فقد حشد عشرين ألف مقاتل وأرسل رسوله إلى بغداد ليطلب إعلان النفير على الصليبيين وليذكرهم بما لحق بالمسلمين في الجزيرة الفراتية ..

ثم يمّم صوب الرها على راس قواته الكبيرة ، فتخوف أصحابها من تحركاته وأرسلوا إليه يلتمسون مصالحته لقاء تنازلهم عما بحوزتهم من أسرى المسلمين ، فأجابهم ايلغازي إلى الصلح وشرط عليهم البقاء في بلدهم وعدم التوجه لمساعدة امير انطاكية في حالة حدوث قتال معه .

وقد كانت هذه خطوة صائبة من ايلغازي تمكن بواسطتها من عزل إحدى قوى الصليبيين المهمة .. ومن ثم عبر الفرات حيث بدأ عملياته بمهاجمة بعض المواقع الصليبية هناك وتدمير اقتصادياتها متخذا من قنّسرين معسكرا لقواته ..

استنجد روجر امير انطاكية برفيقه جوسلين امير الرها وبوتر امير طرابلس وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وعسكر عند(ارتاح) على الطريق الرئيسي الذاهب إلى انطاكية لحماية المدينة من جهة ، ولمراقبة القوات المتجهه إلى حلب من جهة أخرى ، لحين وصول رفاقه . إلا انه سرعان ما مل الانتظار وتقدم صوب القوات الإسلامية على راس اثني عشر ألف مقاتل ، وعسكر في تل عفرين الواقع في منطقة استراتيجية بالقرب من البلاط ، بين مرعش وانطاكية ، إذ كان يحده جبلان يجعلان من الصعب على المهاجمين اختراق الموقع .

واعتقد الغزاة ان حصانة هذا الموقع ستحميهم من هجمات المسلمين لحين وصول النجدات الصليبية ، إذ لم يكن لذلك الموقع طريق إلاّ من جهة ضيقة واحدة ، فاخلدوا إلى المطاولة ، وكانت هذه – كما يقول المؤرخ ابن الأثير – عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين . وأرسلوا إلى ايلغازي يقولون له : لا تتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون إليك ..

سال أحد الطلاب : وهل انطلت الحيلة على ايلغازي ؟

أجاب الأستاذ مواصلا حديثه : أبدا .. فقد قام الرجل – من جهة – يبث جواسيسه الذين تزيّوا بزي التجار في المعسكر الصليبي للحصول على المعلومات اللازمة . واذ طال انتظاره لحليفه طغتكين كي يتفقا على خطة موحدة للهجوم ، ضجر أمراؤه من طول المقام فاجتمعوا وحثوه على القتال ، فطلب منهم ان يجددوا أيمانهم على الصدق في القتال وبذل مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة..

تقدم المسلمون على جناح السرعة وخلفوا خيامهم في قنّسرين ، وعسكروا قريبا من الموقع الصليبي ، وكان الصليبيون قد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين معتقدين ان المسلمين يهاجمون – حين ذاك – مواقع بعيدة .. فما شعروا في الصباح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطت بهم من ثلاث جهات . واقبل القاضي أبو بكر بن الخشاب يحرض الناس على القتال ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم وألهب هممهم .. ومن جهة أخرى راح بطرس رئيس أساقفة أفامية يلقي موعظته في روجر وقواته .. وبدأ هجوم المسلمين الخاطف بان دار أحد أمرائهم من وراء الصليبيين وهاجم خيامهم واعمل القتل بمن فيها .. بينما أطبقت بقية القوات عليهم من الجهات الأخرى ، فاضطرب الغزاة لشدة وطأة الهجوم وقتل كل من تراجع منهم باتجاه الخيام، وحمل المسلمون عليهم – كما يقول المؤرخ ابن العديم - حملة صدقوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ، وتراجع ألفرسان مذعورين فطحنوا الرجالة والاتباع والغلمان .. واسر عدد كبير من الأعداء .. وقتل روجر امير انطاكية .. هذا بينما لم يفقد المسلمون سوى عدد قليل من القتلى ..

من اجل ذلك اشتهرت هذه المعركة لدى مؤرخي الصليبيين باسم معركة (ساحة الدم). وفضلا عن القتلى فقد وقع في آيدي المسلمين من الأسرى والغنائم والدواب ما يربو عن العد. ويشير المؤرخ اللاتيني وليم الصوري إلى ((انه لم يفلت من الألوف

الكثيرة التي تبعت سيدها من يروي سيرة القتال ، وذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب ، على حين لم يلق مصرعه من العدو إلا عدد قليل)) .

سكت الأستاذ قليلا وأجال بصره في طلبته ثم أردف قائلا : من اجل توسيع نطاق المشاركة أخذا وعطاء في هذه المحاضرات الإضافية ، أرجو ان تسهموا بانفسكم في تغطية بعض جوانب الموضوع .. فمن منكم يحدثنا في اللقاء القادم عن النتائج التي تمخضت عنها معركة ساحة الدم والأحداث التي أعقبتها ؟

رفع اكثر من طالب يده ، وأشار إلى أحدهم مبتسما وقال : سيكون الدور عليك في الدرس القادم .. أجاب الطالب مبتسما هو الآخر : انني على استعداد تام .. لقد قبلت التحدي.

(٧)

عندما دخل الأستاذ الغرفة وجد الطالب المكلف بإلقاء المحاضرة قد سبقه إليها، ورآه منهمكا بتنسيق عدد من القصاصات المبعثرة أمامه .. فحياه وجلس في مكانه بانتظار قدوم بقية الطلبة .. وما ان اكتمل عددهم حتى أشار الأستاذ إلى الطالب ان يبدأ الحديث ..

قال الطالب وهو يقلب بين يديه عددا من رؤوس النقاط التي دونها بالأمس : لقد كانت معركة (ساحة الدم) خطيرة بنتائجها حقا .. ولكن الخطأ الذي وقع فيه ايلغازي بعدم الإفادة من هذه النتائج بشكل تام افقدها جانبا كبيرا من أهميتها ..

تساءل عدد من الطلاب : كيف ؟

واصل زميلهم : لقد أدت هذه المعركة إلى ابتعاد الخطر الصليبي الذي كاد يحيق بحلب، فضلا عن ان مقتل روجر امير انطاكية وتحطيم القوة العسكرية للعدو في شمالي الشام يعتبر ذا أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للمسلمين . وقد وصف المؤرخ ابن القلانسي هذا الفتح بانه ((من احسن الفتوح ، ولم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام)). لكن ايلغازي أخطأ بعدم التوجه مباشرة إلى انطاكية ، ولم يحاول استغلال قلة حماتها وهزيمة الصليبيين ، وانها غدت فجأة بلا امير ولا فرسان ولا جيش .. وكان من المرجح ان تسقط انطاكية بيده دون مقاومة تذكر .. وبدلا من ذلك قام ايلغازي بتفريق قواته في بلاد انطاكية لتحقيق انتصارات جانبية .. وكانت تلك البلاد مطمئنة ولم يصلها بعد خبر هزيمة الصليبيين ، فأخذهم المسلمون على حين غرة ووقع في أيديهم من الأسرى والغنائم ما يفوق الإحصاء .

عاد ايلغازي اثر هذه العمليات إلى أرتاح . وبادر بلدوين ملك بيت المقدس فدخل انطاكية لينظم أمورها ، فسلمت أرملة روجر إليه مقاليد الأمور ، فاخذ أموال القتلى ووزعها على من بقي ، ونظم قوة عسكرية جديدة وزع عليها الإقطاعيات وسيطر بواسطتها على الأوضاع في انطاكية ، كما أعاد توزيع إقطاعات الرها واقر جوسلين

على حكمها . وكان البطريك برنارد قد تولى أعباء إدارة انطاكية اثر مقتل روجر ، ففرض منع التجول ليلا ، ووزع الأسلحة على رجال الدين والتجار من الصليبيين لحراسة أسوار المدينة ، وأرسل إلى بلدوين يحثه على القدوم .

وهكذا ضيع ايلغاري فرصة نادرة للاستيلاء على انطاكية وإسقاط إحدى الامارات الصليبية الأربع التي قدر لها ان تبقى بعد ذلك حوالي القرنين من الزمن . ولو قدر لايلغازي تحقيق هذا الهدف لتغيرت تبعا لذلك وجهة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، ولتبوأ ايلغازي مركزا أوسع واكثر شهرة في تاريخ الحروب الصليبية كذلك الذي احتله عماد الدين زنكي – فيما بعد – بإسقاطه الرها والناصر صلاح الدين بإسقاطه بيت المقدس .

ولكن ايلغازي – على أية حال – حقق في معركة (ساحة الدم) نصرا حاسما على الغزاة ارتفع به إلى مركز القيادة في حركة الجهاد ، وأعقبه بتحقيق سلسلة من الانتصارات الأخرى هيّأت للمسلمين في شمالي الشام جوا من الهدوء والاستقرار والانتاج..

قال الأستاذ : حقا انه لتحليل مقنع .. والبحث التاريخي الجاد هو ذلك الذي يضع يده على الخطأ والصواب .. ويشير إلى الأسود والأبيض .. وإلاّ تحوّل إلى قصائد تغرق في المديح والتمجيد أو تبالغ في الذم والهجاء .. ان التاريخ – يقينا – شيء آخر غير الشعر..

وتساءل أحد الطلاب : وماذا بشان طغتكين امير دمشق الذي سبق وان تعاهد مع ايلغازي على العمل سوية ضد الغزاة ؟

أجاب الطالب : لقد تأخر كثيرا عن الموعد المتفق عليه .. ووصل أخيرا بعد ان انتهى كل شيء تقريبا .. ولم يشأ ايلغازي ان يقطع الخيط الذي يصله به فاشترك معه ببعض العمليات المتفرقة هنا وهناك ، وتمكن – بذلك – من تحرير عدد من المواقع التي كان الغزاة يسيطرون عليها ، ومن ثم قفل عائدا إلى قاعدة امارته في ديار بكر ..

وطيلة السنوات التالية وحتى وفاة ايلغازي في رمضان سنة ٥١٦ هـ اثر مرض ألم به، لم تحدث معركة فاصلة بين الطرفين .. بينما جرت سلسلة طويلة من الاشتباكات كانت الهزائم والانتصارات تتراوح فيها بين الجانبين ولم تسفر أي منها عن نتيجة ذات ثقل يذكر في مجرى الأحداث ..

ولقد فقد المسلمون بوفاة ايلغازي قائدا شديد المراس ، وعسكريا جادا استطاع بإمكانياته الشخصية وبالعدد الكبير الذي يواليه من المقاتلين ان يقود حركة الجهاد طيلة خمس سنوات ، ويذكر المؤرخ ابن الفرات ان الحلبيين عندما علموا بوفاته ((عظم عليهم مصابه وأغلقوا الأبواب وأيقنوا بتوالي الشدائد عليهم لان ايلغازي كان قد حسم مادة الافرنج عن حلب وقطع أطماعهم فيها ..)) .. ولولا قيام ابن أخيه نور الدولة بلك بن بهرام بإتمام الدور الذي بدأه ايلغازي ، لكان من المحتمل ان تنتهي مرحلة قيادة الأراتقة للجهاد بوفاته ، ولكن بلك الذي كان يمتلك نفس الأسباب الشخصية والعسكرية التي كان يمتلكها سلفه ، استطاع ان يمضي في توجيه الضربات للغزاة . وكان لاصطحاب ايلغازي له في عملياته القتالية الأخيرة ضد معاقل العدو – بدلا من ابنه – اثر بالغ في تسلمه القيادة العسكرية للأراتقة بعد وفاة عمه ، إذ كان اصطحابه بمثابة توصية من ايلغازي في ان تكون القيادة لبلك من بعده .

ساله الأستاذ : وهل أعددت لنا شيئا عن هذا الرجل ..

أجاب الطالب : لقد أسرتني شخصيته فسهرت إلى ساعة متأخرة من الليل ابحث في أبعاد الدور الذي لعبه ..

قال الأستاذ : حدثنا – اذن – عن شيء مما قرأته عنه ..

أجاب الطالب : لقد حاول الصليبيون استغلال فرصة وفاة ايلغازي وانقسام امارته بين أبنائه وانعزال حلب عن قيادتها الارتقية في ديار بكر ، فسعوا لتحقيق انتصارات سريعة ضد المسلمين في شمال الشام ، وشددوا الخناق على حلب ، وكادوا ان يتولوا زمام المبادرة في المنطقة .. إلا ان بلك بن بهرام استطاع ان يشل تحركاتهم

ويفقدهم القدرة على توجيه ضربة حاسمة ضد المسلمين ، وذلك بالانتصار الذي حققه على قوات الرها إذ تقدم إليها وفرض الحصار عليها ، ولكنه لقي مقاومة عنيفة من حاميتها فاضطر إلى الانسحاب بعد فترة طويلة من الحصار . ولكن صليبيّي الرها لم يطمئنوا لانسحاب بلك واعتقدوا بانه لابد ان يعيد الكرة عليهم ، فأرسلوا إلى أميرهم جوسلين الذي كان انذاك في مدينة البيرة على الفرات يلهو مع أميرها جاليران ، يخبرونه بما حدث ، فخاف جاليران من قرب بلك من حدود امارته واخذ يحث جوسلين على العمل سوية لمجابهته . وتقدم أحد اتباع بلك واخبر سيده بان جوسلين قد جمع قواته استعدادا لمهاجمته ، وكانت قوات بلك قد تفرقت عنه وبقي هو في أربعمائة فارس ، فاستعد للقائهم بالقرب من سروج جنوبي ديار بكر ، بعد ان اطلع على خطتهم ، ونصب لهم كمينا في ارض موحلة مشبعة بمياه الأمطار . وما ان تقدم الصليبيون نحوه حتى غاصت أرجل خيولهم في تلك الأرض . ولم تتمكن من الإسراع بسبب ثقل الأسلحة والفرسان ، فسلط عليهم بلك وابلا من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل واسر جوسلين نفسه. وعرض عليهم بلك إطلاق سراحهم مقابل التنازل عن الرها وبعض المناطق المجاورة فرفضوا ، وطلب جوسلين افتداء نفسه بمبلغ كبير من المال وعدد من الأسرى فرفض بلك ، وحمل أسراه إلى قلعة (خرت برت) في أقصى شمالي ديار بكر حيث اعتقلهم هناك. وغدت الرها تحت وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس أسوة بانطاكية ، وقام بتعيين أحد الرهبان للأشراف عليها لحين اتضاح مصير جوسلين . وقد سعي بلدوين إلى الرد على انتصار بلك بتشديد ضرباته ضد حلب والمواقع الإسلامية في شمالي الشام. لكن بلك لم يمنحه هذه الفرصة إذ توجه إلى قلعة كركر الصليبية التابعة لأمارة الرها وفرض الحصار عليها فاضطر بلدوين إلى الإسراع باجلاء بلك عنها .. وفي صفر من عام ٥١٧ هـ دار قتال عنيف بين الطرفين انتهى بهزيمة الصليبيين ، رغم انهم كانوا يفوقون المسلمين عددا ، واسر الملك بلدوين الثاني نفسه، وقتل عدد كبير من قواته وأمرائه ، وتمكن بلك بعدها من الاستيلاء على حصن كركر ، ثم ما لبث ان وجه بلدوين إلى قلعة (خرت برت) لكي يعتقله مع جوسلين وجاليران وبقية الفرسان الصليبيين الذين اسروا في العام الماضي .

نظر الطالب إلى ساعته وتوقف عن الحديث وكأنه يقول لأستاذه ها قد انتهى الوقت .. فقال الأستاذ .. ما دمت قد اخترت ان تحدثنا عن بلك فانه يتوجب عليك ان تتم الحديث في لقائنا القادم فهل انت على استعداد ؟

أجاب الطالب ، وهو يجمع قصاصات أوراقه : لشدّ ما يسعدني ذلك .

(٨)

في اللقاء التالي واصل الطالب نفسه الحديث عن دور بلك بن بهرام في المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي فقال : اضطرب وضع الصليبيين اثر هزيمة (كركر) إلى حد كبير ، لان بلدوين الثاني لم يكن ملك بيت المقدس فحسب ، انما كان وصيا على أمارتي الرها وانطاكية كذلك ، بعد اسر امير الأولى ومقتل أمير الثانية. وقد قام عدد من البطاركة والأمراء بتسيير الأمور في هذه الكيانات الصليبية ريثما يستقر الأمر على حال .

أما بلك فانه اخذ يسعى عبر الأشهر التالية إلى تقوية امارته وإضافة حصون جديدة إليها كي يتمكن من مجابهة الصليبيين وتحويل المعركة إلى الشام . فتقدم إلى حران وحاصرها واستولى عليها ، ومن ثم طمح لدخول حلب التي استقل فيها أحد أمراء العائلة الارتقية وقدم تنازلات عديدة للصليبيين لكي يعينوه على حماية امارته الجديدة . و كان بلك يدرك ان جهاده للغزاة لن يحقق أية نتيجة حاسمة ما لم يضم حلب إلى امارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام كما حدث في عهد سلفه ايلغازي . ويؤكد هذا الرأي ما قاله بلك لأحد أمراء حلب قبيل استيلائه عليها : ((ما غرضي بحلب الملك ، انما أريد ان اكشف الافرنج عنها وانا أعطيك عهداً انني إذا دخلت حلب لا يكون لي هم إلا لقاء الافرنج وكسرتهم)).

وقد تمكن من دخولها في جمادى الأولى بالاتفاق مع عدد من أمرائها .

وما ان استتبت الأمور لبلك في حلب حتى بدا بشن سلسلة من الهجمات على المواقع الصليبية القريبة منها .. لكنه أرغم على التوقف بسبب ما بلغه من ان بلدوين الثاني وجوسلين وجاليران وسائر الأمراء الصليبيين المعتقلين في قلعة خرت برت قد تمكنوا من الهرب بمساعدة الأرمن من أهالي البلد .. وان جوسلين قد غادر الموقع لحشد القوات الصليبية ، بينما بقي بلدوين الملك بانتظار عودته هناك ..

حشد بلك لدى سماعه بذلك ، قوات كبيرة في سرعة مدهشة وأسرع بالتقدم إلى خرت برت فنزل عليها وأعاد فتحها في رجب من عام ٥١٧ هـ ، واصدر اوامره بقتل كافة الأرمن الذين اشتركوا في المؤامرة ، وأعاد إلى الأسر الملك بلدوين وسائر الأمراء المتواجدين هناك وسيرهم إلى حران حيث اعتقلهم هناك ..

سال أحد الطلاب : وماذا بشان جوسلين ؟

أجاب الطالب : مضى إلى القدس ، بعد ان اقسم على الله الا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ، حتى يجمع الجموع .. واستطاع ان يحشد عددا من القوات الصليبية تقدم بهم شمالا ، وعندما سمع خبر استرداد بلك لخرتبرت انحرف باتجاه حلب محاولا ان يستغل فرصة غياب بلك عنها وتدمير ما يستطيع تدميره انتقاما وتشفيا ، فزحف إلى الجهات المحيطة بحلب وخرب المشاهد والبساتين ، وقتل واسر ، ونبش الأضرحة والقى فيها النار ، واغتصب مواشي الفلاحين واحرق زروعهم .. وخنق الأهالي بالدخان في المغارات ، وفتح المقابر وسلب الموتى أكفانهم .. ورد الحلبيون عليه بسلسلة من حروب العصابات التي الحقت بقواته أذى كبيرا أرغمتها على الابتعاد عن حلب ..

خلال هذه الفترة حشد بلك عددا كبيرا من المقاتلين وعبر الفرات في طريقه إلى حلب ، حيث قام هناك بنشر الأمن وإصلاح الإدارة وإشاعة الرخاء ، حتى انه اصدر أمره بفتح أبواب المدينة ليلا ونهارا .. وبهذه الخطوات آمن النشاط الاقتصادي في المنطقة زراعة وتجارة ، وجعل من حلب قاعدة مستقرة لتوجيه الضربات ضد العدو ..

وفي مطلع العام التالي (٥١٨ هـ) عاد بلك إلى صراعه ضد الصليبيين ، وحقق انتصارا عليهم في منطقة قريبة من حلب .. واذ كان بصدد توسيع عملياته ضدهم بلغه نبأ تمرد صاحب منبج عليه ، فاضطر إلى إرسال قوة من جيشه للقضاء على التمرد ، فما كان من امير منبج حماية لمصالحه إلا ان آعلن عن استعداده للتحالف مع الصليبيين ، واستدعائهم ، وكتب إلى جوسلين يقول ((ان وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت إليك منبج)). وقيل انه رفع شعار جوسلين هناك ، فوجدها هذا

فرصة طيبة وحشد ما يزيد على عشرة آلاف من المقاتلين ، وتقدم إلى منبج ليجلي قوات بلك عنها .. وكان بلك قد التحق للاشراف على الحصار . وتم اللقاء في الثامن عشر من ربيع الأول ، ودار بين الفريقين قتال شديد أسفر عن هزيمة الصليبيين، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى ان أذنت الشمس بالمغيب .. وحمل فيهم بلك يوم ذاك عشرات الحملات يقتل فيهم ويخرج سالما .. يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يتكلم، وعاد إلى منبج بعد الانتصار فبات مصليا مبتهلا إلى الله تعالى لما حققه على يده من الانتصار على الغزاة ..

في صباح اليوم التالي قام بلك بقتل أسرى المعركة انتقاما لما فعله جوسلين بأسرى المسلمين ، ثم تقدم نحو حصن منبج ليختار موضعا مناسبا لنصب المنجنيق . وكان قد عزم على استخلاف أحد الأمراء على حصار منبج والتقدم لانجاد أهل صور على الساحل الشامي بسبب تعرضها لهجوم الصليبيين واستنجاد امير دمشق به .. وبينما كان بلك قائما يأمر وينهي ويستعد للتوجه إلى صور إذ جاءه سهم من الحصن ، قيل انه كان من يد أميرها نفسه ، فوقع في ترقوته اليسرى ، فانتزعه وبصق عليه قائلا: ((هذا قتل المسلمين كلهم)) ومات اثر ذلك ، فحمله جنده إلى حلب حيث دفن هناك ..

أدار الطالب عينيه في وجوه زملائه ليرى اثر حديثه ، فإذا بها قد اكتسبت ملامح الحزن العميق المشوب بقدر غير قليل من الحقد والاحتقار .. وقال أحدهم : انها الخيانة اذن ؟ وقال طالب آخر يجلس إلى جواره : الخيانة التي تقدم الثمار ناضجة حلوة إلى أفواه العدو بعد ان يكون قد يئس من الحصول عليها ..

وعلق الأستاذ : هذه ليست أول ولا آخر مرة تقتل فيها الخيانة قضايا الأمم والشعوب .. فلنواصل الاستماع إلى زميلكم إذ أوشك على ما يبدو على الانتهاء ..

واصل الطالب : لقد تمكن الغزاة – اثر مقتل بلك – من الاستيلاء على صور التي كان قد عزم على انقاذها ، وبذلك تمت لهم السيطرة على الجهات الساحلية ، فطمعوا – كما يقول ابن الأثير – وقويت نفوسهم .. وكانت صور احسن البلاد وامنعها .. وهكذا أدى فتح صور إلى تقوية مركز الصليبيين في الشام وامدادهم بقاعدة بحرية

ذات أهمية كبيرة في الهجوم والدفاع ، وكان من الممكن ان يتفادى المسلمون هذه الخسارة لو بقي بلك على قيد الحياة .

وبمقتل بلك انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد ، والتي امتدت منذ سنة ٥١٣ هـ حتى مطلع عام ٥١٨ هـ .. وقد اثرت السرعة التي قتل فيها بلك في تغيير مجرى الأحداث في الجزيرة وبلاد الشام ، واعطت الصليبيين ألفرصة كي يتحولوا إلى الهجوم من جديد بعد ان اضطرهم ايلغازي وبلك ، في اكثر الاحيان ، على اتخاذ مواقف الدفاع . ولولا قيام البرسقي والي الموصل (٥١٥ – ٥٢٠ هـ) ، ومن بعده عماد الدين زنكي امير الموصل (٥٢١ – ٥٤١ هـ) بعبء المقاومة وتحويل القيادة إلى الموصل ثانية ، لكان للصراع بين المسلمين والصليبيين وجهة أخرى ..

سأل أحد الطلاب : وماذا فعل الأمراء الأراتقة الذين أعقبوا بلك ؟

أجاب الطالب : آثروا الانسحاب من ميدان الصراع وانهمكوا بمشاكلهم الداخلية في ديار بكر .. وكان حسام الدين ابن ايلغازي ، والذي حكم حتى عام ٥٤٧ هـ - على خلاف ابيه وابن عمه – ميالا للمسالمة منهمكا بلذاته الخاصة ، غير مهتم بالمرة بمسألة الجهاد ضد الغزاة .. وكانت أول خطوة خطاها هي اطلاق سراح الملك بلدوين لقاء ثمن تافه ..

ومهما يكن من أمر – قال الطالب منهيا محاضرته – فان الأراتقة بسلبيتهم هذه قد اتاحوا للموصل ان تبرز ثانية لكي تتزعم حركة الجهاد طيلة ما يزيد على العقدين من الزمن..

شكر الأستاذ تلميذه على محاضرته القيمة وادارعينه في وجوه طلبته كانما يريد ان يقول لهم بان دور كل واحد منكم سيجيئ ان عاجلا آو اجلا .. فاسرع أحدهم يقول : أرجو ان تاذن لي بالحديث عن دور البرسقي في اللقاء القادم .. لقد اغراني زميلي بالاعتماد على النفس في البحث عن الحقائق التاريخية وتركيبها .. هذا إلى انها فرصة طيبة نتعلم فيها كيف نحاضر ونتحاور ونديرالنقاش ..

ايده الأستاذ على وجهة نظره ، وطلب منه ان يهيئ نفسه للقاء القادم ، وأردف : لقد تولى البرسقي الموصل مرتين ، كانت اولاهما في الفترة بين ٥٠٧ و٥٠٩ ، وكانت ثانيتهما في الفترة بين ٥١٥ و ٥٢٠ هـ ، ولعب في المرتين دورا واسعا في القتال ضد الصليبيين ، إلا اننا تجاوزنا للتفاصيل التي قد لا تخدم الموضوع نود أن نعرف شيئا عن دوره في ولايته الثانية نظرا لخطورته من جهة ، ولكونه مهد الطريق لقيادة عماد الدين زنكي من جهة أخرى .. فالى اللقاء القادم مع البرسقي .. باذن الله ..

(٩)

اجتمع الطلبة في غرفة استاذهم إلا ذلك الذي كلف بالحديث عن (البرسقي).. ونظر بعضهم إلى بعض كانما يتساءلون عن سبب تاخره .. ونظر الأستاذ إلى ساعته وقد أخذت الدقائق تتسارع .. وقال أحد الطلاب هامسا في أذن زميله : لعله لم يطق تحمل المسؤولية فاختار الهروب .. فاجابه زميله : ما كان له ان يتطوع مختارا لأمر لا يقدر عليه .. وسمعهما طالب ثالث فهمس في اذنيهما : لا تذهبن بكما الظنون المذاهب فان بعض الظن اثم.. وما كاد ينهي عبارته حتى دخل الطالب واثار الاعياء من جراء الصعود السريع للدرج بادية على وجهه .. اعتذر إلى استاذه وزملائه .. وقال ان عدداً من المسائل المعلقة في موضوعه اضطرته إلى التاخر في مكتبة الكلية بعض الوقت ريثما ينجزها .. وها هو الان مستعد للحديث .. أشار إليه الأستاذ ان يبدأ ، بينما همس أحد الطلبة لزميلين بجواره : ألم اقل لكما ؟

بدأ الطالب حديثه بالقول بان محاولة تبّين حجم الدور الذي لعبه البرسقي ضد الغزاة لا تتحقق إلا بتقديم عرض سريع لمحاولات الصليبيين استغلال الفراغ الذي تركه انسحاب الأراتقة من الميدان .. وكانت حلب قاعدة الشام الشمالية هي الهدف .. حيث تعرضت المناطق الزراعية المحيطة بها لخسائر فادحة قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف دينار .. وقاد الهجوم الصليبي اميرا انطاكية والرها .. وما لبث الغزاة ان فرضوا الحصار على حلب من شتى جهاتها ، ووطنوا انفسهم – كما يقول ابن الأثير – على المقام الطويل ، وان لا يغادرونها حتى يملكوها ، وبنوا البيوت لمجابهة الحر والبرد، وراحوا يشنون هجماتهم عليها ويقطعون الاشجار المحيطة بها، وبلغ من حقدهم وبربريتهم ان قاموا بتخريب مشاهد كثيرة ونبشوا قبور المسلمين وسلبوهم اكفانهم، وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا الحبال بارجلهم وسحبوهم أمام انظار مسلمي حلب وهم يقولون ساخرين : ((هذا نبيكم محمد)) .. واخذوا – يوما – من إحدى مشاهد حلب الخارجية مصحفا ونادوا : ((يا مسلمين ابصروا كتابكم)) ثم ثقبه أحدهم بيده وشده بخيطين وربطه باسفل برذونه ، فراح البرذون يروّث عليه..

وكلما ابصر ألفرنجي الروث ينساب على المصحف صفق بيديه وضحك عجبا وزهوا. ولم يكتف الغزاة بهذا ، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بايديهم من المسلمين . واخذت جماعات مسلحة من مقاتلي حلب تخرج سرا لتغير على معسكرات الأعداء فتقتل وتأسر ثم تنسحب إلى داخل المدينة ، وخلال ذلك كانت الرسل تتردد بين الطرفين ولكن دون جدوى ، حتى ضاق الأمر بالحلبيين فاتفقوا على ارسال وفد من زعمائهم لاستدعاء حسام الدين بن ايلغازي الأرتقي من ديار بكر .. وخرجوا ليلا متجهين إلى مقر حكمه في ماردين ، وعندما بلغوها كان أميرها حسام الدين منهمكا في الاستيلاء على بعض المواقع المجاورة .. وبقي الزعماء الحلبيّون في ماردين فترة من الزمن يحثون أميرها ألارتقى على انجادهم وهو يعدهم ويمنيّهم ويماطلهم دون ان يقدم على أي اجراء جاد ، فاعلموه انهم لا يريدون سوى ان يصل حلب بنفسه لكي يتولى القيادة، وان الحلبيين سيكفونه أمر الغزاة .. فلم يحظوا بجواب ..

ازدادت الاحوال في حلب خلال ذلك سوءً ، وقلت الأقوات فيها ، وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والمرض والانهاك .. وظهر للحلبيين من الأمير آلارتقى الوهن والعجز ، فكتب أحدهم إلى الوفد في ماردين يخبرهم بما ال إليه أمر حلب من الجوع والمرض واكل الميتات . فوقع هذا الكتاب بيد الأمير ألارتقى فتملكه الغضب وقال لحاشيته : انظروا إلى هؤلاء ، يتجلدون علي ويقولون : إذا وصلت فاهل حلب يكفونك أمر الصليبيين ، ويغرّرون بي حتى اصل في قلة وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة .

ثم أمر بمراقبة الوفد كي لا يغادر اعضاؤه ماردين للاستنجاد بأمير آخر، ولكن هؤلاء تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب ، ومن ثم اتجهوا إلى الموصل للاستنجاد بالبرسقي .

سأل أحد الطّلاب : وهل استجاب الوالي لمطلبهم ؟

أجاب الطالب : كان الرجل يومذاك مريضا ، وكان الضعف قد بلغ به مبلغا عظيما ، حتى ان الاطباء منعوا الناس من الدخول عليه .. وعندما استؤذن للوفد الحلبي

أذن لهم ، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الاخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها اهالي المدينة ومقاتلوها ، أجابهم البرسقي : ((انكم ترون ما انا فيه الان من المرض ، ولكني قد جعلت لله علي نذرا لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذب عن بلدكم وقتال اعدائكم)) .. ولم تمض ثلاثة ايام على مقابلته للوفد حتى فارقته الحمى وتماثل للشفاء..

سأل الأستاذ : فهل كان عند عهده ؟

أجاب الطالب : كان رجلا بمعنى الكلمة .. فسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل ونادى قواته ان تتأهب لجهاد الأعداء واستنقاذ حلب . وفي غضون ايام معدودات غدا جيشه على اهبة الاستعداد ، فغادر الموصل متجها إلى الرحبة وأرسل من هناك إلى اميرى دمشق وحمص يطلب مساعدتهما في انجاز مهمته ، فلبّى الاميران النداء وبعثا بعساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك انذاك صوب بالس القريبة من حلب .

ومن بالس ارسل البرسقي إلى مسؤولي حلب وشرط عليهم – مسبقا – تسليم قلعتها إلى نوابه كي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين ، فاجابوه إلى طلبه وسلموا القلعة لنوابه ، وما ان استتب الأمر لهؤلاء واطمان البرسقي إلى خطوطه الخلفية حتى بدأ زحفه صوب قوات الأعداء التي تطوق حلب من جهاتها الأربع ..

وصلت قوات البرسقي مشارف حلب في آواخر ذي الحجة سنة ٥١٨ هـ ، وما ان اقتربت من معسكرات الصليبيين حتى اسرع هؤلاء بالتحول إلى منطقة افضل من الناحية الدفاعية ، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق إلى انطاكية ، وهكذا غدوا مدافعين بعد ان كانوا مهاجمين ، وخرج مقاتلو حلب إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما ارادوا ، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي لدى وصوله . وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الغزاة بانسحابهم واتخاذهم موقفا دفاعيا ، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل ان يعيد تنظيم قواته من جديد خوفا من نزول هزيمة فادحة في عساكره قد تعرض حلب للسقوط ، وأرسل طلائعه لرد الجيوش المتقدمة إلى معسكراتها ، وقال موضحا

خطته هذه : ((ما يؤمننا ان يرجعوا علينا ويهلك المسلمون ؟ ولكن قد كفي الله شرهم ، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه ، ونجمع لهم ان شاء الله ، ثم نخرج بعد ذلك اليهم ..)) . ومن ثم دخل البرسقي حلب وبدأ بحل مشاكلها وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية ، واصدر مرسوما برفع المظالم المالية والمكوس والغاء المصادرات ، وعمت عدالته الحلبيين جميعا بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات طيلة السنتين السابقتين .. وام يكتف البرسقي بذلك بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء ويقضي على الضائقة المعاشية التي يعاني منها الحلبيون .. وما لبث النشاط الزراعي في المنطقة ان عاد إلى حالته الطبيعية حيث قام المزارعون بزراعة منتجاتهم في اراضيهم التي شردوا عنها ، وساعدتهم الظروف المناخية حيث هطلت مقادير كبيرة من الامطار فاخصبت الأرض وقدمت انتاجا غزيرا .. كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده بسبب ما تمتعت به المنطقة من امن واستقرار ..

وهكذا استطاع البرسقي ان يحطم الطوق الذي احاط الغزاة به حلب ، وان يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ، وان يعيد إليه الأمن والعدل والاستقرار ، ويوحده مع الموصل لأوّل مرة منذ بدء الحروب الصليبية ، الأمر الذي اتاح لهذا القائد ، ولعماد الدين زنكي من بعده ، ان يفيدا من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة .. وسرعان ما غدت الأمارة التي شكلها البرسقي، والممتدة من نهر قويق إلى نهر دجلة ، نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة اسلامية متحدة زمن الزنكيين والايوبيين والمماليك . ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة ، واقطاعات متفرقة ، زادت من ضعفها ، لكن ما حدث من اضافة حلب إلى الموصل يعتبر – بحق - بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي لابد ان تقضي في يوم من الايام على قوة الغزاة في الشام .

ابدى الأستاذ ارتياحه العميق للمحاضرة واعرب الطلاب عن متعتهم بها ايضا ..

وكلف الطالب بإتمام حديثه في اللقاء القادم شرط ان يكون انذاك أول الحاضرين !!

(١٠)

كان الطالب أول الحاضرين فعلا وفوجئ به الأستاذ يجلس على مكتبه وهو منهمك بتدوين بعض الملاحظات ، وما ان راى استاذه قادما حتى هم بالقيام ، فربّت على كتفيه مبتسما وطلب منه ان يبقى في مكانه قائلا : انني اتوسم فيك وفي عدد من زملائك مستقبلا طيبا باذن الله .. وسياتي ذلك اليوم الذي ستجتاز فيه دراستك العليا لتغدو اهلا للتدريس الجامعي ..

فماذا لو جربت كرسي الاستاذية منذ الان ، وماذا لو عدت انا لبعض الوقت إلى عهد التلمذة الجميل فجلست إلى جوار زملائك مناقشا ومستمعا ؟

كان الطلبة قد وصلوا الغرفة واخذوا أماكنهم ، وفوجئوا بمرأى زميلهم يحتل مكتب الأستاذ ، وباستاذهم يجلس إلى جوارهم مبتسما .. ها هو تقليد جديد وجميل يسود بينهم فيزيد المشاركة المغرية بين الطرفين عمقا ومحبة وعطاء ..

وواصل الطالب حديثه الذي بدأه في اللقاء السابق قائلا : لم يكن بوسع بلدوين ملك بيت المقدس وقائد الجيش الصليبي ، بعد ان راى ما حدث ، سوى العودة إلى انطاكية ومنها إلى بيت المقدس الذي غاب عنه طوال سنتين . إلا انه لم يمكث هناك زمناً طويلا فلقد كان البرسقي عنده اشد خطورة من الأراتقة ، إذ كان بوسعه ان يوحد المسلمين بشمال الشام تحت سلطانه نظرا لكونه اميرا على الموصل وحلب ، ولمساندة السلطان السلجوقي له ، كما خضع لقيادته اميرا دمشق وحمص . وكان البرسقي – بعد ان اقر الأوضاع في حلب – قد غادرها في مطلع عام ٥١٩ هـ واقام في ارض حماة اياما لحين وصول طغتكين امير دمشق على راس قواته ، ومن ثم هاجم حصن كفرطاب وتمكن من تحريره ، ثم توجه إلى زردنا ، فعجّل الملك بلدوين بالمسير صوب الشمال وقاد جيوش انطاكية وطرابلس والرها لانقاذ هذا الموقع..

وفي السادس من ربيع الآخر دارت بين الطرفين معركة تعد من اشد المعارك عنفا وسفكا للدماء في تاريخ الحروب الصليبية . واذ استند المسلمون إلى تفوقهم

العددي حاولوا الاشتباك وجها لوجه مع الصليبيين ، غير انه كان لهؤلاء من التفوق بالسلاح ما لم يطق المسلمون مقاومته فحلت بهم هزيمة مؤلمة ، وقتل منهم عدد كبير جاوز الألف .. واضطر البرسقي إلى الانسحاب إلى حلب ومنها إلى الموصل بعد ان ترك في حلب حامية عسكرية ..

وطيلة سنتي ٥١٩ و ٥٢٠ هـ قاد البرسقي اكثر من حملة ضد الغزاة في شمالي الشام، ربح بعضها وخسر بعضها الآخر ، إلا ان ايا منها لم تكن من المعارك الحاسمة التي تترتب عليها نتائج خطيرة .. وما من شك في ان هزيمة البرسقي أمام بلدوين في مطلع عام ٥١٩ هـ جاءت بشكلها السريع ذاك لكي تقلب ميزان القوى في المنطقة وتضع جدارا صلبا أمام مطامح البرسقي الذي كان يامل – بعد ضم حلب إلى امارته – ان يحقق للمسلمين انتصارات حاسمة ضد اعدائهم ، وان يسعى لتهديد اماراتهم في الشمال بعد ان يوجه ضربات قوية لجيوشهم هناك.. وهكذا جاءت هذه الهزيمة لتنحرف بحركة البرسقي عن هدفها المرسوم. ولئن كان الرجل قد اضاع ألفرصة بسبب هذه الهزيمة فانه فتح الطريق – ولا ريب – بضمه حلب إلى الموصل ، أمام عماد الدين زنكي الذي جاء بعد سنتين لكي يصفي الحساب مع الغزاة.

ما لبث البرسقي ان اغتيل في الموصل عام ٥٢٠ هـ على آيدي طائفة الباطنية نفسها ، التي كانت قد اغتالت من قبل (مودود) وعددا من زعماء الجهاد ضد الصليبين لاسباب سياسية ومذهبية . ففي التاسع من ذي القعدة توجه البرسقي إلى الجامع العتيق في الموصل لاداء صلاة الجمعة ، وقصد المنبر ، فلما دنا منه وثب عليه ثمانية اشخاص متزيين بزي الزهاد واثخنوه ضربا وطعنا ، بعد ان تمكن هو وحراسه من قتل بعضهم ، ثم حمل جريحا ومات في نفس اليوم . وتم قتل جميع المشتركين في الاغتيال فيما عدا واحدا منهم تمكن من الهروب إلى الشام .. وكان اصحاب البرسقي قد حذروه من الخروج ذلك اليوم ، لكنه رفض اقتراحهم وقال : ((لا اترك صلاة الجمعة لشيئ أبدا)) وكان من عادته ان يحضر صلاة الجمعة مع عامة الناس .

ومن عجب – يقول المؤرخ ابن الأثير – ان امير انطاكية الصليبي ارسل إلى عز الدين مسعود ابن البرسقي يخبره بقتل والده قبل ان يصل الخبر إليه شخصيا ، بسبب ما كان عليه امير انطاكية من اهتمام بمتابعة الاحوال الإسلامية .. ولكن .. الا يلقي هذا النبأ ظلا من شك حول امكانية حدوث اتفاق مسبق بين الباطنية والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم ، لا سيما وان قتلته ربما كانوا – كما ذكر المؤرخ ابن العديم – قوما من اهل حماة القريبة من معاقل الغزاة ؟

وكيفما كان الأمر فان مقتل البرسقي اصاب المسلمين عامة والموصل خاصة بخسارة فادحة ، حيث فقد أهالي الموصل باغتياله واليا من نوع ممتاز ، قوي الشخصية عادلا في الرعية ، ملتزما تعاليم دينه ، فلا ريب ان يحزنوا عليه ويأسفوا لفقده ويستدعوا ابنه عز الدين مسعود ، الذي كان بعيدا عن الموصل ، ليحل محله ..

سأل عدد من الطلاب : وهل واصل مسعود السير في الطريق الذي شقّه أبوه ؟

أجاب الطالب : أبدا ، فهو لم يبق في دست الحكم فترة طويلة ، إذ انه ما لبث ان توفي في العام التالي اثر مرض ألم به ، ولم يكن قد اعار – خلال فترة حكمه القصيرة – أي اهتمام لقتال الصليبيين واستئناف الدور الذي كان قد سار عليه ولاة الموصل السابقين ، بسبب انصرافه التام إلى محاولة الاستيلاء على المواقع والحصون الشامية التابعة لطغتكين حليف أبيه ، حتى ان بعض الروايات تذكر انه كان عازما على التوجه إلى دمشق نفسها في محاولة للاستيلاء عليها ، وان وفاته ربما جاءت نتيجة سم سقاه اياه بعض انصار غريمة امير دمشق.

اثنى الأستاذ على الطالب بينما كان هذا منهمكا بجمع قصاصاته ونصوصه وملاحظاته ، وقال : ها نحن قد كسبنا اثنين من المحاضرين الجيدين ، فهل نطمح إلى زيادة رصيدنا منهم في المستقبل ؟ أجاب حشد من الطلبة بانهم مستعدون لمواصلة الطريق .. وسأل أحدهم : وكيف تطورت الأحداث بعد مقتل عز الدين بن البرسقي وانتهت إلى تولي عماد الدين زنكي قيادة المقاومة الإسلامية للغزاة ؟

أجاب الأستاذ : لقد تولى الموصل بعده اخوه الصغير ، الذي لم يكن سوى اداة لينة بيد أحد مماليك ابيه ويدعى (الجاولي) الذي اسرع بتوجيه وفد إلى السلطان السلجوقي كي يقر الوالي الطفل على املاك ابيه واخيه .. إلا ان الوفد لم يكن في الحقيقة سوى سيف ذي حدين..

ولقد اطاح الحد الآخر بانانية جاولي وعبث الصبيان ، في فترة كان الصليبيون يحتشدون فيها لهجوم شامل على المعاقل الإسلامية ، عندما اتفق اعضاؤه على ان يطلبوا من السلطان ترشيح قائد كفء لهذا المنصب الهام ، قائد بامكانه ان يدبّر أمر ولايته ، ذات الموقع الخطير ، بحزم وجدارة ، وان يتصدى للصليبيين مواصلا السير على ذات الطريق التي سار عليها ولاة الموصل السابقون .. ولم يكن المرشح الذي اقره السلطان السلجوقي ، وباركه الخليفة العباسي ، سوى عماد الدين زنكي الذي انهى عهد ولاة الموصل وبدا هناك عهداً جديداً ..

توقف الأستاذ قليلا ريثما يتناول شيئا من الماء ثم اردف : كلكم يعرف ولا ريب اللقب الذي اشتهر به القائد الالماني في الشمال الافريقي خلال الحرب العالمية الثانية .. روميل : انه (ثعلب الصحراء) .. ولقد كان ثعلبا بحق ، فالحيل التي كان يعتمدها للتخلص من اعدائه أو الاطباق عليهم ، والطرائق الذكية التي كان يحرك بها قواته في اللحظات الصعبة بمهارة فائقة، والخطط التي كان يرسمها بسرعة بديهة فيضاعف بها حجم امكاناته الحقيقية عدة مرات ، والتي كادت ان تصل به إلى القاهرة رغم الظروف المعجزة .. اهلته لان يحمل هذا اللقب .. ثعلب الصحراء .. وسنجد عبر استعراضنا لجوانب الدور الذي لعبه عماد الدين زنكي تجاه الصليبيين انه كان ثعلبا هو الآخر .. والحرب خدعة – كما يقول رسولنا عليه السلام وكما هو متفق عليه في كل مكان وزمان – ولقد اعتمد زنكي هذه القاعدة إلى اقصى مدى فتفوق على عدوه في اكثر من موقعة ، وضاعف حجم امكاناته الحقيقية ، وحصل على الكثير من الاهداف التي كان يتوخاها باقل قدر من التضحيات ..

عماد الدين زنكي .. ثعلب الحروب الصليبية .. اليس كذلك ؟

هز الطلبة جميعا رؤوسهم بالايجاب .. بينما واصل الأستاذ : والان .. من منكم يتولى مهمة عرض الدور الذي لعبه الرجل في صراع الحق والباطل ؟

رفع اكثر من طالب يده .. أشار إلى أحدهم وقال له : أرجو ان نستمع منك ما يؤكد ان الرجل كان ثعلبا بحق !!

(١١)

بدأ الطالب حديثه قائلا : لم يشأ عماد الدين زنكي الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية ، ورأى ان يسعى أولا إلى تثبيت امارته الجديدة وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية ، وتوحيد ما يمكن توحيده من الامارات الصغيرة المتناثرة التي تحيط بها من كل مكان ، وتشكل عوائق أمام أية خطة يستهدف من ورائها إعلان الجهاد العام ضد الغزاة ، إذ كانت المصالح الخاصة لأمرائها ، والمنافسات المستمرة فيما بينهم ، تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الأعداء ، كما كان هؤلاء الأمراء – من جهة أخرى – يشكلون خطرا مباشرا على زنكي في حالة تقدمه لقتال اولئك الغزاة ، إذ ستظل خطوطه الخلفية – انذاك – غير مامونة ، فضلا عن امكان تعرضه لمجابهة محالفات بين بعض هؤلاء الأمراء والصليبيين قد تعيقه عن تنفيذ مشاريعه واسترداد ما استولوا عليه .. ومن ثم قام بمراسلة جوسلين امير الرها ، وعقد معه هدنة مؤقتة .. ولم تشر المصادر إلى شروط هذه الهدنة التي كان أمدها سنتين ، إلا ان ابن الأثير يذكر انها تمت على ما اختاره زنكي ، ويبدو ان المشاكل التي جابهت جوسلين اضطرته إلى قبول هدنة لصالح غريمه المسلم .

كان هدف زنكي الأول – اثر عقد الهدنة - هو اعادة الاستيلاء على حلب واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام ، وعندما دخلها في العام التالي لقي ترحيبا بالغا من اهاليها ، وخرجوا لاستقباله في تظاهرة عبروا خلالها عن فرحهم بالامير الذي جاء لتخليصهم من تهديد الصليبيين الدائم لهم ، ومما كانوا يقومون به من تخريب لا حد له على مدى المناطق الزراعية المحيطة بمدينتهم . وانطلق زنكي بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقة من حصون وامارات محلية ، منتهزا فرصة هدنته مع جوسلين ساعيا إلى توسيع حدود امارته في شتى الاتجاهات ..

في عام ٥٢٥ هـ كان زنكي قد صفّى الكثير من مشاكله في المنطقة ، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت ، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية مستهدفا اشدها قربا وخطرا على كيانه السياسي في حلب. ولم يكن غير حصن

الاثارب المجاور هو ذلك الهدف ، بسبب ما كان يلحقه من اضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين ، والغارات المستمرة التي يقوم بها فرسانه الذين اختيروا من بين رفاقهم نظرا لخطورة هذا الموقع واهميته بالنسبة لاهدافهم في المنطقة .

اتجه زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه ، فلما علم صليبيّو الشام بذلك حشدوا قواتهم من كل مكان ، وشكلوا جيشا ضخما اتجهوا به لقتال زنكي . فاستشار هذا اصحابه وقادته فيما يعمل ، فاجمعوا أمرهم على الانسحاب وترك الحصن ، لان لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة ، إلا انه اجابهم بقوله: ((ان الغزاة متى راونا قد عدنا من بين آيديهم طمعوا وساروا في اثرنا وخربوا بلادنا ، ولابد من لقائهم على كل حال)) .. ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيدا عن الأثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل واسر عدد كبير من العدو . ثم ما لبث زنكي ان اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة وقتل واسر معظم افراد حاميته ، ثم أمر بتخريبه كي لا يكون عرضه لتهديد مستمر من قبل الغزاة ، وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق انطاكية وضرب عليها الحصار ، فبذل له اهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته ، آجابهم إلى ذلك وقفل عائدا إلى حلب . وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من اهم نتائج معركة الاثارب وهي ان الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاها جديدا لصالح المسلمين ، الأمر الذي جعل الغزاة يدركون ان عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم ، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع ، بعد ان كانوا ((قد طمعوا في ملك الجميع)).

انشغل زنكي طيلة السنوات الاربع التالية (٥٢٥ – ٥٢٨ هـ) بتنظيم شؤون امارته وتوسيعها . ولم يستطع ان يوجه اهتمامه إلى الصليبيين رغم المنازعات التي نشبت بينهم اثر وفاة امير انطاكية عام ٥٢٥ هـ . وفي عام ٥٢٩ هـ أتيحت له فرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام ، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب ، والتي كانت تهددها باستمرار ، فضلا عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي انطاكية من هجمات المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها .

ولكن هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين نبّهتهم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام ، والى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه ، وراحوا يتحيّنون ألفرصة المواتية لانزال هذه الضربة . وبعد عامين ، وحينما كان منهمكا في حصاره لحمص ، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه وكسب أمراء دمشق الذين تعود حمص اليهم .. إلى جانبهم . وعندما سمع زنكي بذلك سار للقائهم بعيدا عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى ، ورأى ان خير وسيلة يستدرج بها العدو إليه ، وتمنحه زمام المبادرة ، هو ان يظهر عزمه على مجابهة حصن بعرين الصليبي القريب . وما ان بدا زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الغزاة بقيادة كل من (فولك) ملك بيت المقدس و (ريموند) كونت طرابلس ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين وقتل واسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته ، كان ريموند من بينهم ، أما الملك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين .

ما لبث زنكي ان تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصارا شديدا ، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين واوربا طالبين النجدة من ابناء العالم المسيحي وأمرائه ، قائلين لهم ان زنكي ، إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام لعدم وجود من يدافع عنها، وان المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس . فجمع الاوربيون جيشا كبيرا من الصليبيين والبيزنطيين وساروا لنجدة الحصن ، إلا ان زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي ومنع عنه تسلل الاخبار ، كما ان تشديده الحصار على هذا الموقع الهام ادى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه ، الأمر الذي اضطر اصحابه إلى طالب الصلح ، فأجابهم زنكي إليه بعد ان علم بتقدم الأعداء لنجدته ، واشترط عليهم ، فضلا عن تسليم الحصن ، تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين به على نشاطه العسكري ، فلم يتردد اصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي بعد ان ايقنوا بعجزهم عن مقاومته،

والتمسوا منه اطلاق سراح أمرائهم وكبار اسراهم ، فاطلقهم ، بعد ان عاملهم معاملة حسنة ، وتسلم الحصن .

تساءل أحد الطلاب : وماذا بشان حملة الروم والصليبيين التي قدمت لانقاذ الحصن ؟.

أجاب الطالب : تقدمت فعلا بقيادة الامبراطور البيزنطي (حنا كومنين) ، ولما اخفقت في انقاذ بعرين سعت إلى محاولة استغلال ألفرصة والاستيلاء على عدد من المواقع الإسلامية في الجهات الشمالية من الشام . وتم عقد اتفاق بين الامبراطور وريموند امير انطاكية كان من ابرز بنوده انه إذا ما استولى المتحالفون على حلب وما يحيط بها من حصون ، فان ريموند يقوم بالتنازل عن انطاكية للامبراطور البيزنطي، ويتخذ لنفسه عوضا عن ذلك امارة صليبية جديدة تضم حلب وشيزر وحماة وحمص . وقد قام ريموند – كتاكيد لهذا الاتفاق – باعلان تبعيته للامبراطور بعد حصوله على موافقة ملك بيت المقدس على ذلك ، إذ اعتقد الاخير بان مصلحة صليبيي الشام تقتضي استمالة البيزنطيين والافادة من قواهم الكبيرة ضد المسلمين وبخاصة زنكي .. ولكي يغطي الامبراطور على اهدافه الحقيقية سعى إلى خداع زنكي ،الذي كان يعسكر انذاك بين حمص وحماة ، بان أرسل إليه رسولا ليقدم له بعض الهدايا وليخبره بعدم تعرض الامبراطور لامارته . ثم ما لبث الامبرطور ان اصدر اوامره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب ، كيلا تصل انباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي . ومن ثم تقدم الامبراطور بصحبة أميريْ الرها وانطاكية وبدأوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه ، وقد استطاع بعض اهاليه ان يفروا إلى حلب حيث انذروا المسؤلين فيها عن قرب الخطر ، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية وأرسلوا إلى زنكي يطلبون نجدة مستعجلة ، فامدهم بقوة من ألفرسان كان لدخولها حلب تاثير كبير على رفع معنويات ابنائها ، وما ان وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصار عليها حتى ادركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة ، هذا إلى ان الحلبيين اخذوا يقومون بهجمات

سريعة على معسكرات الأعداء ادخلت الرعب في قلوبهم فاثروا الانسحاب ، وتوجهوا إلى معرة النعمان فاستولوا عليها ، وتقدموا من هناك إلى حصن شيزر وفرضوا الحصار عليه في محاولة لوضع أيديهم على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي ، ويقف سدا أمام مطامح واهداف زنكي البعيدة في المنطقة ..

قال الأستاذ مداعبا تلميذه : على رسلك يا هذا .. لقد تدفق حديثك كالسيل فلم تترك لزملائك مجالا لسؤال ..

أجاب الطالب : ليس ذنبي .. فلقد كلّفتني بالحديث عن رجل يطول عنه الحديث..

قال الأستاذ : ولكن لا تنس انك انت الذي اخترت موضوعك ..

أجاب الطالب : نعم .. وسوف اتحمله حتى النهاية ..

(١٢)

في اللقاء التالي واصل الطالب حديثه عن (ثعلب الحروب الصليبية : عماد الدين زنكي) وقال: انتهينا في اللقاء الماضي إلى قيام الامبراطور البيزنطي وحلفائه الصليبيين بحصار قلعة شيزر .. وكان من الطبيعي ان يستنجد أميرها بزنكي الذي اتجه على راس قواته شمالا وعسكر بالقرب من حماة .. وكان – كما يحدثنا عدد من المؤرخين – يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم .. ثم يعود آخر النهار .. كما انه سعى إلى خداع المتحالفين إذ ارسل اليهم يقول : ((انكم قد تحصنتم بهذه الجبال – المحيطة بشيزر – فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها، وان ظفرنا بكم ارحت المسلمين من شركم . ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم انما كان يفعل هذا ترهيبا لهم". وبهذا استغل زنكي مبادئ علم النفس الحربي وعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين . وقد أشار هؤلاء على الامبراطور بلقاء عدوهم فرفض ذلك اعتقادا منه بان زنكي لم يكن يظهر آمامهم من عسكره سوى القليل ، وان وراءه قوات ضخمة اتاحت له ان يتحداهم إلى اللقاء ..

استمر زنكي يطلق ما في جعبته من سهام الحيلة والدهاء لتفتيت هذا التحالف الخطير ، فراح يراسل صليبيي الشام ويحذرهم من امبراطور الروم ، ويعلمهم انه ان استولى على حصن واحد في الشام اخذ البلاد التي بايديهم منهم . ويراسل الامبراطور – من جهة أخرى – يتهدده ويوهمه ان الصليبيين معه . فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين ، لاسيما وان اميرا الرها وانطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الامبراطور ، فضلاً عن اشتداد المنافسة فيما بينهم وتخوّف ريموند من انتصار الروم وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم والتي تجعله يقف وجها لوجه أمام قوات المسلمين بعيدا عن انطاكية ، ولم يأل زنكي جهدا – من جهة أخرى – في طلب النجدات العسكرية من شتى انحاء العالم الإسلامي ، فارسل إلى بغداد يلتمس نجدة السلطان السلجوقي ، والى سلاجقة اسيا الصغرى يشير عليهم بالاغارة على المواقع

البيزنطية هناك كي يتحول اهتمامهم إلى تلك الجهات ، واشاع انباء تقول بان اراتقة ديار بكر قد ارسلوا جيشا ضخما ، وان قوات دمشق تتحرك لمساعدة زنكي ..

إزاء هذا وذاك راى الامبراطور ان الانسحاب اصبح أمرا محتما ، فانهى حصاره لشيزر في رمضان (٥٣٢ هـ) بعد ان عرض عليه أميرها مبلغا من المال ، وقفل عائدا إلى انطاكية..

وحين ذاك انقض زنكي على الات العدو الحربية الثقيلة ومجانيقهم الكبيرة فاستولى عليها ورفعها إلى قلعة حلب ، كما ارسل بعض جنده في اثار المنسحبين فقتلوا واسروا عددا كبيرا منهم .. وكان من اهم النتائج التي ترتبت على هزيمة المتحالفين هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية .. فضلا عن قيام زنكي باسترداد عدد من المواقع الهامة شمالي الشام .. قبل ان يقفل عائدا إلى الموصل ..

قال أحد الطلبة معلقا : حقا لقد استطاع الرجل بالمكر والدهاء ان يحقق قدرا من التوازن في القوى بينه وبين خصومه الذين يفوقونه بكثير .. بل ان يتفوق عليهم ..

أجاب الطالب : فكيف إذا عرفتم الاساليب التي اعتمدها لتحقيق اكبر انجازاته على الاطلاق : اسقاط الرها .. إحدى امارات الصليبيين الأربع .. عام ٥٣٩ هـ .

قال الأستاذ : فلنعرف – اذن – شيئا عن تفاصيل هذا الانجاز ..

واستانف الطالب حديثه فقال : في عام ٥٣٨ هـ اتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية التابعة لامارة الرها .. وبذلك مهد الطريق لانزال ضربته المباشرة بالرها نفسها ، وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سنّي صراعه الطويل ضد الغزاة ..

كانت الرها من اهم المراكز الصليبية باعتبارها قاعدة لاحدى اماراتهم الأربع في الشرق الإسلامي ، ولقربها من العراق ، وقوة تحصيناتها ، وما كانت تسببه للمناطق الإسلامية المجاورة من اخطار لا تقف عند حد . وكانت هذه الامارة تشكل

عائقا يحول دون قيام زنكي بتوحيد الجبهة الإسلامية في الجزيرة وشمالي الشام بسبب تدخلها المستمر لصالح اعدائه في المنطقة ، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الإسلامية التي تربط بين الموصل وحلب من جهة ، وبين بلاد فارس والعراق وسلاجقة اسيا الصغرى من جهة أخرى .

وفي سبيل تحقيق هدفه سعى زنكي إلى تدبير خدعة تتيح له هذا من اقصر طريق ، وكان يعلم انه لن يستطيع ان ينال غرضه من الرها ما دام أميرها جوسلين وقواته موجودين فيها ، وهكذا انصب اهتمامه على أيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر امارته . فاتجه إلى آمد واظهر انه يعتزم حصارها وانها هدفه دون غيرها ، وبث عيونه في الوقت نفسه في منطقة الرها ليطلعوه – أولا باول – على تحركات أميرها الذي ما أن راى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر ، وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبيية ، حتى غادر مقر امارته على راس قواته واتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات ، كي يتخلص هناك من كل مسؤولية ، ويتفرغ لملذاته، تاركا حماية الرها لاهاليها الذين كان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال ، بينما تولى الجند مهمة الدفاع عن القلعة ..

وجاءت عيون زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق شوقا إليه ، فاسرع بالتوجه إلى الرها مستعينا على السرعة بركوب الابل ، مستنفرا كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، وما لبث ان انهالت عليه جموع المتطوعين ، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع . وحاول – في البدء – ان يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف ، فراسل اهالي الرها باذلاً الأمان ، طالبا منهم ان يفتحوا له الأبواب قبل ان يجد نفسه مضطرا إلى تدمير أسوار بلدهم واخلاء دياره ، إلا انهم أبوا قبول الأمان ، وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن مستخدما الات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير اسواره قبل ان تتاح ألفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لانقاذ هذا الموقع الخطير ..

أرسل جوسلين – لدى سماعه نبأ الهجوم – في طلب نجدة مستعجلة من كافة الامارات الصليبية في الشام ، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على مملكة بيت المقدس التي وصلت نجدتها بعد فوات الاوان ، كما انه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة ، أو ارسال نجدة لتعزيز دفاعها ، فحيل بينه وبين ذلك . وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة عام ٥٣٩ هـ ، وبعد مرور ثمان وعشرين يوما على بدء الحصار، انهارت بعض اجزاء الحصن ، اثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له ، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة ثم ما لبثت القلعة ان استسلمت بعد يومين ، وقام القس اليعقوبي (برصوما) باجراءات تسليم الرها لزنكي الذي اصدر اوامره إلى جنده بايقاف اعمال القتل والاسر والسلب واعادة ما استولوا عليه من غنائم ، فاعيدت جميعها ولم يفقد منها كما يقول ابن القلانسي ((إلا الشاذ النادر)) ، واعقب ذلك باصدار أمر آخر بالاسراع في تنظيم ما اضطرب من امور الرها ، وتعمير ما تهدم خلال اسابيع القتال الطويلة ، وعين فيها من رآه اهلا لتدبير آمرها والاجتهاد في مصالحها ، ثم توجه لتصفية عدد كبير من المواقع والحصون التابعة لها ، فجعلت تتساقط بين يديه الواحدة تلو الأخرى ، بحيث لم يتبق للصليبيين شرقي الفرات ايما حصن كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الام: الرها ..

وهكذا حقق زنكي الحلم باسقاط اولى الامارات الصليبية الأربع ، فمنح بذلك المسلمين املا كبيرا بمواصلة الطريق وإسقاط بقية الامارات على أيدي القادة الذين اعقبوه .. وقد عزز هذا الانتصار مكانة زنكي تجاه السلطان السلجوقي والخليفة العباسي الذي انعم عليه بعدد كبير من الالقاب ، كما ان الانتصار جعل من زنكي امام المسلمين ، والمجاهد في سبيل اعلاء كلمة الله ، والبطل الذي تشير الجماهير إليه بالبنان ..

هذا وقد اثار سقوط الرها مخاوف المؤسسات الصليبية في اوربا ، ونبههم إلى خطورة الأوضاع في الجزيرة والشام وتحولها إلى اتجاه مضاد لمصالحهم واهدافهم،

لذلك نشطوا في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة وصلت الشام بعد مقتل زنكي عام ٥٤١ هـ وتولي ابنه نور الدين محمود زعامة المسلمين في الشام ..

اعرب الأستاذ وسائر الطلبة عن ارتياحهم العميق لمحاضرة زميلهم ، وتمنوا سماع محاضرات أخرى على هذا المستوى ، وقال الأستاذ : لن ننسى ان نذكر هنا ان (الخيانة) لعبت دورها ها هنا أيضا بانهاء حياة زعيم آخر من زعماء المقاومة الإسلامية، حيث اغتاله أحد اتباعه خلال حصاره لقلعة جعبر على نهر الفرات ، بعد ان اغراه أصحابها العقيليون بقتل سيده .. إلا ان ظهور ابنه نور الدين محمود الذي كان يفوق اباه حماسة وايمانا ، ملأ الفراغ الذي تركه اغتيال ابيه .. وسيكون وقوفنا عند هذه الشخصية الفذة – كما وعدتكم – طويلا .. فالى اللقاء ..

(١٣)

قال الأستاذ وهو يستخرج من حقيبته عددا من الاوراق التي ضمنها ملاحظاته : اريد ان احدثكم في هذا اللقاء ، وفي اللقاءات التي ستليه ، عن تكوين شخصية بطل الوحدة والمقاومة والتحرير .. نور الدين محمود .. وان أرحل معكم في دروبها ومنحنياتها .. فها هنا في ساحة الذات يمكن ان نعثر على العديد من مؤشرات الانتصار التي مكنت الرجل وعددا من قادة المقاومة الذين سبقوه واعقبوه من تحقيق ذلك الذي حققوه .. فلنبدا بمتابعة سمات هذه الشخصية على بركة الله ..

ان أول ما يطالعنا في تكوين الرجل هو (الجدية) .. الجدية التي كانت تدفعه دفعا إلى الاسراع لسد أية ثغرة قد يتسلل منها الهواء البارد ، واتخاذ الاجراءات ألفورية الكفيلة بحماية الحق الإسلامي وردع المحاولات العدوانية ..

لما قتل أبوه عماد الدين زنكي عام ٥٤١ هـ كما راينا ، كان جوسلين – الذي تولى الرها قبل تحريرها – يقبع في ولايته المتبقية غربي الفرات ، فراسل اهالي الرها ، وكان عامتهم من الارمن ، وواعدهم يوما يصل اليهم فيه ، فاجابوه إلى ذلك ، فسار في عساكره إليها وتمكن من دخولها ، ولكن القلعة امتنعت عليه بمن فيها من المسلمين ، فشدد عليها الخناق وما ان بلغ نور الدين الخبر ، حتى سار مجدا إليها ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها وقفل عائدا إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة واجلى من كان بها من الغزاة ، ليس هذا فحسب بل انه اتخذ قرارا بتدمير استحكامات المدينة وطرد عدد كبير من سكانها المتآمرين من اجل ان يظل هذا الموقع محررا ، وألاّ يعود ثانية إلى قبضة الغزاة ..

في عام ٥٦٧ هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا محملين بالتجار والامتعة ، وغدروا بالمسلمين . وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا ، فلما سمع الخبر استعظمه، وأرسل اليهم يطلب اعادة ما اخذوه ، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم ، وكان لا يهمل أمرا من امور رعيته – كما يقول المؤرخ ابن الأثير – إذ ما لبث ان جمع

عساكره وبث سراياه في مواقع الغزاة وحصونهم بين انطاكية وطرابلس ، وقام هو بحصار بعض حصونهم وتخريب بعضها والاستيلاء على بعضها الآخر ، الأمر الذي اضطر الغزاة إلى مراسلته يعرضون عليه ما استولوا عليه من المركبين ، وتجديد الهدنة الموقوتة بين الطرفين .

ويوما بلغه ما فعله جوسلين من ارسال السلاح الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين ، إلى أحد خصومه ، فقام نور الدين وقعد لما اعتبره تحديا ، وهجر الراحة للاخذ بثاره ، فاذكى العيون على جوسلين ، واحضر جماعة من المقاتلين وبذل لهم الأموال المغرية ان هم ظفروا به اما قتلا أو اسرا .. ذلك أن نور الدين كان يعرف انه ان جمع قواته لقصد خصمه جمع هذا – بدوره – قواته واتخذ حذره .. فاخلد إلى اعمال الحيلة ..

وكان نور الدين إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من انتصار يتجدد للغزاة على المسلمين ، فتكون حصونهم انذاك مستعدة غير محتاجة لشيئ ..

وهكذا ترتبط جدية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات ، والذي لم يتح معه لاحد من الأعداء في الداخل والخارج ان ينفذ لتوجيه ضربة أو اصابة مقتل .. كان كما يقول ابن الأثير ((يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الغزاة ، واكثر ما ملكه من بلادهم به)) ويضرب على ذلك مثلا سياسته مع مليح بن ليون ملك الارمن في بلاد الاناضول ، فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته .. وكان يقاتل به الصليبيين ، وكان يقول : انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسلك وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا اراد فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طلب احتمى بها فلا يقدر عليه ، فلما رايت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الغزاة .. وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا

الطريق، ملك زعيم الارمن عددا من بلاد المسلمين وحصونهم وصار منه ضرر عظيم يصعب تداركه ..

وفي محاولته فتح دمشق أدرك نور الدين ان اعتماد العنف سيستفز أمراءها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم ، فعمد إلى اعمال الحيلة واخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا المتواصلة ويظهر له المودة حتى وثق به . واخذ نور الدين يكاتبه مشككا اياه بنوايا عدد من أمرائه ، وانهم بصدد الاتصال به ضد أميرهم ، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى ابعاد وأعتقال عدد من ابرز اصحابه ، فلما خلت دمشق من كبار أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بجماهير دمشق واستمالهم ، فاجابوه إلى تسليم البلد ، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن – بمعونة جماهيرها – من دخولها بسهولة بالغة ودونما سفك للدماء . وقبل ذلك ، وحينما بعث إليه ألفاطميون يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام ، لاشغالهم عن مهاجمة مصر ، أجاب نور الدين سفيرهم في هذه المهمة : ان اهل دمشق اعداء والغزاة اعداء ، ما امن منهما إذا دخلت بينهما ..

ويحدثنا أبو شامة المقدسي عن إحدى خدع نور الدين حينما اغار على طبرية ، وجمع اعلام الصليبيين وملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده وقال له : اريد ان تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس وتخبر اسد الدين شيركوه ، المحاصر هناك ، بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام ، وتعطيه هذه الاعلام وتأمره بنشرها في اسواق بلبيس ، فان ذلك مما يفت في عضد الخصوم ويدخل الوهن عليهم . ففعل اسد الدين ما أمره به ، فلما راى الصليبييون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وقفلوا عائدين . كما يحدثنا ابن الأثير عن الاسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصن المنيطرة بالشام عام ٥٦١ هـ فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار إليه في سرية من ألفرسان على غرة من الصليبيين لانه أدرك انه بجمعه العسكر سيعطي الاشارة إلى خصومه لكي ياخذوا اهبتهم ، وما لبثت حامية الحصن ان فوجئت بهجوم نور الدين المباغت ، وبعد قتال عنيف سقط الحصن . ولم يجتمع الغزاة لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا انه في

قلة من العساكر لاسرعوا إليه ، انما ظنوه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا ويئسوا من رده.

وفي بدء حكمه حلب عام ٥٤١ هـ، حينما الح عليه اخوه الاكبر سيف الدين غازي امير الموصل ، ان يرحل لمقابلته وتقرير الأمور بين الرجلين بشكل نهائي ، تردد نور الدين في الاستجابة لطلب أخيه ، وراى في ذلك مجازفة قد تودي بامارته ، ولم يغادر حلب للقاء أخيه إلا بعد ان تاكد من موقفه الودّي تجاهه ، وبعد ان تقرر الاتفاق بينهما على ان يتم الاجتماع خارج معسكر سيف الدين ، وان يكون مع كل من الاميرين خمسمائة فارس ، وان يكون اللقاء ليلا كيلا تكون هناك فرصة لان يقاتل احدهما الآخر . ولعلّ الذي اختار هذا الوقت هو نور الدين لانه هو الذي كان يخشى اخاه ويحذره ..

في مجابهته للمشاكل والأحداث كان نور الدين يعتمد – إذا صح التعبير – اسلوبا عقليا واقعيا للوصول إلى الحلول الملائمة ، الاسلوب الذي دعا إليه القران الكريم ، وسار على هديه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم ، فحققوا من خلاله تغييرا فعليا في خارطة العلاقات والاشياء ..

وفي عام ٥٥٢ هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية فخربت الكثير من القرى والمدن ، واهلكت حشدا لا يحصى من الناس ، وكان اشد هذه الزلازل بحماة وحصن شيزر وطرابلس وما جاورها .. وتهدمت الاسوار والدور والقلاع .. فما كان من نور الدين إلا ان شمر عن ساعد الجد وبذل جهودا عظيمة في اعادة اعمار ما تهدم وتعزيز اسواره ، فعادت البلاد كاحسن مما كانت – كما يقول ابن الأثير – ولولا ان الله منّ على المسلمين بنور الدين ، فجمع العساكر وحفظ البلاد ، لكان دخلها الغزاة بغير قتال ولا حصار .

وفي عام ٥٦٥ هـ ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل ، لم تقل هولا عن سابقتها ، فهدمت مدن وحصون ، وتهدمت أسوار وقلاع ، وسقطت الدور على اهلها ، فهلك خلق كثيرون ، فانطلق نور الدين يعمر البلاد مواصلا الليل بالنهار ، وكان

يشرف على العمل بنفسه ويعمل جنبا إلى جنب مع الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى احكم أسوار جميع البلاد واعاد بناء مرافقها منفقا على ذلك مالا كثيرا ..

ولن يتسع المجال في لقائنا هذا لتحليل موقف نور الدين من هذه الضربات الطبيعية .. وسنحاول ذلك في لقائنا القادم باذن الله ..

(١٤)

واصل الأستاذ حديثه عن موقف نور الدين من الزلازل التي ضربت بلاد الشام ، فقال انه اختار موقفا عمليا في مجابهة الكارثة .. لم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن ان الظلم قد فشا وان هذا عقاب الله ، أو ان اشراط الساعة قد لاحت في الافق .. انه يرفض في المرتين اللتين تحركت فيهما الزلازل العنيفة ، وفي غيرهما مما لم نشر إليه، القول بان هذه الكوارث الطبيعية جاءت غضبا من الله سبحانه .. وهو يذكرنا هنا بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ابنه ابراهيم ، حيث كسفت الشمس، فقال بعض المشيعين انه الحزن على وفاة ابراهيم .. وكان جواب الرسول عليه السلام : ان الشمس والقمر ايتان من ايات الله لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد من الناس !!

ان الكوارث تجيئ بمثابة تحديات دائمة تستفزّ القيادات البشرية إلى مزيد من الوعي والانجاز ، وان الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود التجارب السياسية والامم والحضارات خطوات إلى الأمام ، والعجز عنها هو الذي يريك مسيرتها ويصيبها بالضعف والشلل والجمود .. أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول واعاد اعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة .. وواصل الطريق .

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال : كانت في الموصل خربة واسعة وسط البلد اشيع عنها انه ما شرع في عمارتها أحد إلا وافته المنية أو تحطمت آماله .. فأشار الشيخ عمر الملاء ، أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين ، على نور الدين بابتياعها واقامة جامع فيها تقام فيه الصلوات وتلقى الدروس ، ففعل نور الدين وانفق فيه اموالا كثيرة ، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ، ورتب فيه خطيبا ومدرسا .

وموقف نور الدين العملي هذا من ضربات الطبيعة تلك يعكس لنا جانبا آخر من تكوينه الايجابي ، ذلك هو نزعته العميقة المتاصلة للاعمار والبناء والانجاز .. ان الحكم الناضج في نظره هو الذي يعرف كيف يحقق اكبر قدر من العمران و (التحضر) باقل قدر من الزمن .. انه السباق الحضاري المعروف بين الانسان والزمن من اجل الانجاز والبناء والتغيير .. السباق الذي دعانا الله سبحانه إلى الاستجابة لتحديه الخلاق ، ووصف المؤمنين بانهم (يسارعون في الخيرات) وانهم (لها سابقون).. المسارعة والسبق .. وكلتاهما تتضمن مفهوماً زمنيا واضحا ..والقيادة الصالحة في نظر نور الدين – من ثم – ما هي إلا القيادة القديرة على حل هذه المعادلة البسيطة لتحقيق افضل النتائج في كافة ميادين العمل والابداع .. لقد بنى الرجل الجوامع والمساجد والربط والزوايا للتعبّد وتربية الروح .. كما بنى المدارس ودور القران والحديث للتعلم وتربية العقل .. وشجع اعمال الفروسية والنشاطات الرياضية لكسب مزيد من المهارات القتالية وتربية الجسد .. ولم يمض على حكمه سنوات فحسب حتى بدات دولته تشهد المزيد من مؤسسات الخدمات الاجتماعية: المستشفيات، الملاجئ، دور الايتام، الخانات، المدارس ، دور الحديث ، الربط، الجسور، القناطر ، الحدائق ، القنوات، الاسواق ، الحمامات ، الطرق العامة ، المخافر والاسوار ..

ولم يغفل نور الدين ، وهو بصدد البناء والاعمار ، الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطا أساسيا بالابداع .. ورجل كنور الدين، تخرجه مدرسة الإسلام الرحبة الشاملة، لا يمكن إلا ان يرى في العمل والتزيين .. في المضمون والشكل .. في الوقائع والجماليات ، وجهين لعمله واحدة .. راى محراب أحد المدارس غير مفصص فارسل لعمارته وتجميله فصوصا مذهبة .. وجلب لمدرسة أخرى بناها في حلب رخاما شفاقا إذا وضع تحته ضوء شف عما وراءه .. ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩ هـ انشأ بها داراً عامة في غاية الجمال سماها (دار المسرّة) ، وفي قلعة حلب انشا نور الدين ابنية كثيرة واقام ميدانا زرعه بالحشيش سمي (الميدان الاخضر) .. ويرتبط بهذه المسالة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات من تزيين دمشق وابرازها بمظاهر البهجة والجمال .. والمؤرخ ابن

القلانسي ، شاهد العيان ، يحدثنا عن إحدى هذه المناسبات عام ٥٥٢ هـ ((حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته ، بحيث حلى اسوارها بالالات الحربية من الدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الافرنجية والاعلام والطبول والبوقات وانواع الملاهي المختلفات . وهرعت الاجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال ، فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة ايام)) .. لقد كان (اكسسوار) الحفل – إذا صح التعبير – مناسبا لمدينة تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي ..

وكان نور الدين فضلا عن هذا وذاك ، قوي الشخصية ، قديرا على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة ، والشدة واللين ، والعنف والرحمة ، مائلا – بقدر – إلى هذا الجانب أو ذاك ، حيثما تطلب الموقف التحرك إلى هنا أو إلى هناك .. يصفه ابن الأثير بأنه ((كان مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته)) وانه ((كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة .. شديدا في غير عنف ، رقيقا في غير ضعف)) ويصف مجلسه فيقول ((انه كان كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا ..)) وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي : ((كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأن على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، إذا تكلم انصتنا واذا تكلمنا استمع لنا)) وقال ابن كثير ((.. لم تسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى ، صموتا وقورا ..)) .. كان يملك هيمنة عجيبة على موظفيه، صغيرهم وكبيرهم ، فكان يلزمهم بوظائف الخدمة ، ولم يجلس عنده امير من غير ان يأمره بالجلوس .. وكان مع هذا الوقار إذا دخل عليه الفقيه أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كانه اقرب الناس إليه ..

ويقودنا هذا – في المقابل – إلى ما كان يتمتع به الرجل من شعبية – وقد تناغم في تكوينه الذاتي هذا الحشد الغني الرائع من المزايا والصفات - شعبية امتدت لكي تتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها إلى ما وراء الحدود .. فيكسب جماهير

خصومه من الداخل ، فيهز عروشهم ويزيحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما اراقة قطرة من دم .. فالدم المسلم كان عنده عظيما !!

منذ عام ٥٤٣ هـ حينما تقدم على راس قواته للمساعدة على فك حصار الصليبيين لدمشق ، شاهد الدماشقة مكانته فتمنوه !! وراحوا يدعون له دعاءا متواصلا ، واخذ يخرج إليه بين الحين والاخر عدد من الطلاب والفقراء والضعفاء .. ولهذا دلالته ، فهم الذين كانوا في واقع الأمر اصدقاءه الحقيقيين ، فما خاب قاصده كما يقول المؤرخ ابن القلانسي .. أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لانه منع اصحابه من العبث في مزارعهم ، واعلن انه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الغزاة ..

وفي عام ٥٤٧ هـ عندما تقدم إلى دمشق ، لضمّها إلى جبهة القتال الجاد المخلص ضد الغزاة ، ونادى حاكمها باصحابه للخروج إلى قتال نور الدين ، لم يخرج إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من تعاون هذا الحاكم مع الغزاة .. واقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفا على دماء المسلمين . وقد عزز بذلك محبة الدمشقيين له ، واخذ يكاتبهم ويستميلهم ، ((وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والاحسان ، فوعدوه بالتسليم)) . وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩ هـ في فتح ابيض لم ترق فيه قطرة من دم ، وما ذلك إلا بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منذ سنوات .. وبعد اقل من ثلاث سنين حينما اعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو ، خرج كل قادر على حمل السلاح من الدمشقيين ، وتبع نور الدين في حملته تلك كما يقول المؤرخ ابن القلانسي ((فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية .. العدد الكثير)).

وثمة رواية لابن الأثير تناقلها كثير من المؤرخين تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع .. وساضطر لتاجيلها إلى اللقاء القادم إذ اوشك الوقت على الانتهاء .. وعندما راح الأستاذ يلملم اوراقه علق أحد الطلبة قائلا : ثمة من يؤكد على ان جل مدوناتنا

التاريخية ، أي مصادرنا القديمة ، لاتهتم إلا بالطبقات الحاكمة .. وها نحن نجد في محاضراتك عطاء غزيرا عن دور الجماهير ، فكيف نوفق بين هذا وذاك ؟ !

ضحك الأستاذ وهو يهم بالنهوض وقال : ليس كل ما يقال صحيحا .. انه التعميم الذي يقتل الحقيقة .

(١٥)

نظر الأستاذ إلى أحد طلبته وقال : اظنك كنت تسال في ختام لقائنا السابق عن الحكم السائد على مصادرنا القديمة .. ولقد اشرت عرضاً إلى ان التعميم هو السكين التي تذبح الحقيقة .. كيف صيغ هذا الحكم .. واتسع نطاقه لكي ما يلبث ان يصبح حقيقة تكاد تكون مسلما بها ؟ انه التعميم المقصود حينا وغير المقصود احيانا .. ولو ان هؤلاء الذين يمضغون تعميمات كهذه ، أو يصنعونها .. القوا نظرة اكثر جدية واتخذوا موقفا اكثر علمية ، لراوا في القطاع الاكبر من مصادرنا ، وهو ما يطلق عليه اسم كتب التراجم ، والذي يكاد يغطي سبعين بالمائة من مكتبتنا التاريخية ، لراوا في هذا القطاع عطاء متدفقا لايكاد يمس الحكام من قريب أو بعيد ، إنما ينصب على اناس من قلب الامة .. اناس اختلفت حظوظهم في الحياة والغنى والطعام والشراب .. ولكنهم شدوا اليهم اهتمام المؤرخين بالمواقف التي اتخذوها ، وباهتماماتهم التي اسهموا بها في اغناء حركة التاريخ .. وهناك بين صفحات هذه المصادر الوف ، بل عشرات الألوف ، من الناس العاديين الذين اهتم بهم مؤرخنا القديم وخصص لهم الصفحات الطوال .. ونظرة واحدة إلى مصادر من مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، والمنتظم لابن الجوزي ، وتراجم رجال القرنين السادس والسابع لابي شامة المقدسي ، وطبقات الحنفية لابن قطلوبغا .. وغيرها عشرات بل مئات من كتب التراجم والطبقات .. تؤكد لنا بالادلة الغزيرة ، خطأ المقولة السائدة من ان التاريخ الإسلامي هو تاريخ سلطات وحكام فحسب ..

ومهما يكن من أمر فان الوقت لا يتيح لنا الاسترسال في هذا الموضوع ، ولنرجع إلى رواية ابن الأثير ذات الدلالة على ذلك التعاطف العميق الذي طبع العلاقات المتبادلة بين نور الدين محمود وجماهير امته . يقول ابن الأثير : طلب نور الدين عام ٥٥٩ هـ نجدة أمراء الاطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة ، فأما فخر الدين الارتقى ، أحد حكام ديار بكر ، فبلغني عنه انه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود ، فان نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي

نفسه والناس معه في المهالك. فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد أمربالتجهيز للغزو ، فقال له اولئك : فارقناك بالأمس على حال نرى الان ضدها ؟ فقال : ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم انجده خرج اهل بلادي عن طاعتي ، واخرج البلاد عن يدي ، فانه كاتب زهادها وعبادها يذكر لهم ما لقي المسلمون من الغزاة ، وما نالهم من القتل والاسر والنهب ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اتباعه واصحابه وهم يقراون كتب نور الدين ويدعون عليّ فلابد من اجابة دعوته ..

ان نور الدين يتعامل مع القواعد .. يكسب قلوبها وتاييدها ومحبتها .. يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة ، فان تردد الحكام والأمراء ، أو جبنوا ، أو بخلوا ، فان بمقدور القواعد الاكثر ثقلا وتاثيرا ، ان ترغمهم على الطاعة ، والا عصفت بهم واخرجت البلاد من آيديهم .. وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى سوح الجهاد..

وما من شك في ان انسجاما عميقا يتحقق بين القيادة والقواعد ، ومحبة عفوية واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور .. وتعاطفا مخلصا من اجل الاهداف الكبيرة، يطبع التقابل الفعال بين هذين القطبين .. ما من شك ان هذا وذاك مما شهده عصر نور الدين ، يمنح المؤرخ المعاصر مؤشرات ايجابية عن إدارة الرجل ، وتفسيرا منطقيا لسبب من اهم اسباب النجاح والتوفيق ضد الخصوم ..

لكن هناك ولا شك اسباباً أخرى .. فثمة التكوين العسكري الفذ لشخصية نور الدين : الشجاعة التي تصل حد الفدائية وعشق الموت .. مهارات الفروسية ورياضاتها العنيفة التي جعلت الرجل يستوي على ظهر جواده ، وهو يقاتل أو يلعب ، أو يتمرن ، وكانه والجواد قّدا من عجينة واحدة .. القيادة الذكية البصيرة التي تعرف كيف تخطط وكيف تضرب وكيف تضمن الانتصار .. اخلاقية الجندي والقائد وهو يقاتل

من اجل القيم العليا ويجاهد من اجل انتصار كلمة الله في الأرض .. بعيدا عن الاهداف القريبة ورفضا للالتصاق بالارض والاخلاد إليها ..

ان الناس في بلاد الشام كانوا يعيشون يوم ذاك حالة حرب دائمة ، لانهم كانوا في قلب الساحة ، ينامون على قرع الطبول ويصحون على صوت النفير .. كان على الرجل يومها ان يجاهد أو يقعد مع الاطفال والشيوخ والعجزة ، ولا اقول النساء ، لان النساء كن يقاتلن في الساحات التي اتيح لهن ان يقاتلن فيها .. ان يظل الانسان في حالة وسط يقاتل إذا شاء ، ويستريح إذا أراد ، معناه ان يداس بحوافر الخيول المصطرعة القادمة من مشارق الأرض ومغاربها .. وحركة التاريخ التي كانت تقذف إلى سدّة القيادة – احيانا – رجالا لا يقدرون على حمل مسؤولية الجهاد الدائم ، كانت تقذف بهم ، بعدة فترة تطول أو تقصر ، بعيدا عن مناصبهم لكي تفسح المكان للرجل الاقدر والاقوى والاشجع والاكثر التزاما ..

لقد تسلم نور الدين القيادة مجاهدا من طراز أول .. الجهاد بمفهومه البعيد العميق الذي يطبع اخلاقية المقاتل وفكره وعاطفته وارادته واعصابه وتكوينه النفسي والفسلجي على السواء.. وهو يذكرنا هنا بنماذج المجاهدين الذين بعثهم كتاب الله ورسوله الكريم يومها ، ففتحوا العالم ، واسقطوا تيجانه وعروشه ، وغيروا خرائطه .. لقد كان هذا التكوين الجهادي المتميز ، عاملا من اكبر عوامل الانتصار الذي حققه نور الدين .. وهو يشع عفويا نقيا واضحا لمن يتامل الرجل ، فيعرف كيف اصبح – بحق – أحد الابطال الكبار في خط المقاومة الإسلامية الطويل ..

قبيل معركة البابين في مصر عام ٥٦٢ هـ بين المسلمين والصليبيين ، وكان هؤلاء يفوقون المسلمين بكثير عدة وعددا ، يقف رجل من قواد نور الدين يدعى شرف الدين برغش ، وكان من الشجاعة بمكان مشهور ، وقد راى تردد اصحابه فينادى : من يخاف القتل والجراح فليقعد في بيته مع النساء .. والله لئن عدتم إلى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلا عذر ، لياخذن منكم جميع ما اخذتموه منه إلى يومنا هذا

ويقول لكم : اتاخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون الديار المصرية يتصرف فيها الكفار ؟

ان الرجل يرفض الهزيمة إلا إذا اجتمعت اسبابها ، وما اقل ما تجتمع الأسباب إذا خلصت النية وصح العزم واستقام الطريق ، وامتلك المقاتل الايمان الذي يمكنه من مجابهة المخاوف والاحزان والتفوق عليها .. ولم تكن العدة أو العدد في يوم من الايام هي الحكم الفصل في مصائر المعارك والحروب .. (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) .

وتتوالى الروايات عن شجاعة القائد التي بعثت ، في لحظات الخطر والتردد، حشودا من المقاتلين الشجعان عرفوا كيف ينتزعون النصر من فكي الهزيمة .. في عام ٥٤٤ هـ فرض نور الدين الحصار على حصن (انب) شمالي الشام ، فاجتمع له الصليبيون بقيادة امير انطاكية وساروا إليه ليبعدوه عن الموقع ، فلم يتراجع أمام حشدهم الكبير بل لقيهم واشتبك معهم في قتال مرير ظهر منه خلاله كما يقول ابن الأثير ((من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنة – حيث لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين – ما تعجب الناس منه)).

وانجلت المعركة عن هزيمة العدو وقتل امير انطاكية ..

وعند حصن الاكراد عام ٥٥٨ هـ هاجم الصليبيون معسكر نور الدين على حين غفلة ، وهو في قلة من اصحابه ، فانسحب بسرعة إلى حمص واخذ منها ما يحتاجه من خيام وتجهيزات ، وعاد فعسكر على بعد اربعة فراسخ من خصمه ، فكان الناس يظنون انه لا يقف دون حلب ، لكنه كان اشجع من ذلك واقوى عزما .. وهناك اجتمع إليه كل من نجا من ارض المعركة . فقال له بعض اصحابه : ليس من الراي ان تقيم ها هنا ، فان الغزاة ربما حملهم الطمع على المجيئ الينا ونحن على هذه الحالة . فوبخه واسكته وقال : إذا كان معي ألف فارس لا ابالي بعدوّي قل ام كثر .. والله لا استظل بجدار حتى اخذ بثار الإسلام وثاري . وأرسل إلى دمشق وحلب يطلب المزيد من العدد

والاموال . وكان في نية الصليبيين الهجوم على حمص باعتبارها اقرب المواقع اليهم، فلما بلغهم نزول نور الدين قريبا منها قالوا : انه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة ما يمنعنا ..

(١٦)

قال الأستاذ : كنا نتحدث في لقائنا الماضي عن التكوين العسكري لنور الدين محمود .. وثمة جوانب أخرى عن الموضوع لابد من الوقوف عندها قليلا .. لقد كان الرجل في الحرب – كما يصفه المؤرخ سبط ابن الجوزي – ((ثابت القدم ، حسن الرمي ، يتقدم اصحابه ويتعرض للشهادة ، ويسال الله ان يحشره من بطون السباع وحواصل الطير)) .. اصيب اخوه (نصرة الدين) خلال حصار بانياس عام ٥٦٠ هـ بسهم اذهب إحدى عينيه ، فلما راه نور الدين قال له : لو كشف لك من الاجر الذي اعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى !!

وهو يملك في حسه وتصوره ووجدانه معنى (الشهادة) العميق .. المعنى الذي دفع اجيالا من المسلمين إلى سوح الجهاد طلبا للموت ، فاسقطوا الدول ، وغيروا الخرائط ، ودكوا العروش ، ومرغوا الانوف .. ولم يموتوا .. فكان نور الدين – إذا حضر الحرب – اخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرّضت للشهادة فلم ارزقها . وسمعه يوما الأمام قطب الدين النيسابوري الفقيه المعروف وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله ، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فانك عمادهم ، وان اصبت لا يبقى من المسلمين احد إلاّ واخذه السيف .. فاجابه : ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ البلاد والاسلام .. ذلك هو الله الذي لا اله إلا هو ..

وثمة روايات ووقائع أخرى كثيرة تعطينا مزيدا من الشهادات على شجاعة الرجل، وتمتد لكي تغطي مسافة الثلاثين سنة التي قاد فيها امته في ميادين الحرب والسلام.

فإذا ما عرفنا اجماع المؤرخين على سعة حيلة الرجل ، ودهائه وحذره وذكائه، وحسن رايه في مجابهة المشاكل ، وهي تعد بحق ضوابط أو (فرامل) الشجاعة البشرية ، كي لا تتحول بين يدي القيادة إلى اندفاع لا هدف وراءه ، وكي لا يغدو الفداء تهورا لا طائل تحته.. ادركنا حجم المكاسب التي جنتها حركة المقاومة في بلاد

الشام من شجاعة قيادتها وفدائيتها ، وتذكرنا عبارة ابن الأثير وهو يصف نور الدين ((.. أما شجاعته وحسن رايه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فانه كان اصبر الناس في الحرب ، واحسنهم مكيدة ورايا ، واجودهم معرفة بامور الاجناد واحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك. سمعت جمعا كثيرا من الناس ، لا احصيهم ، يقولون : انهم لم يروا على ظهر ألفرس احسن منه ، كأنه خلق منه ، لا يتحرك ولا يتزلزل ..)) .. وهذا ينقلنا إلى طرف آخر من تكوين الرجل المجاهد والقائد الفارس ..

فلقد كان نور الدين (رياضيا) من طراز أول ، يعشق اللعب عشقا يفوق الوصف . كان مولعا بضرب الكرة (البولو) ، كما يقول العماد الاصفهاني أحد معاصريه ، وربما دخل الظلام فيلعب على ضوء الشموع .. وكان – كما يصفه ابن الأثير – من احسن الناس لعبا بالكرة واقدرهم عليها . وقد فسر الممارسة الرياضية تفسيرا فروسيا رائعا في اجابته على اعتراض أحد اصدقائه الزهاد حينما كتب إليه يقول : ما كنت اظن انك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية .. وكان جوابه بخط يده : والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، انما نحن في ثغر والعدوقريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت (الحرب) فنركب في الطلب . ولا يمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها ايضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نروضها بهذا اللعب .. وهذا – والله – هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

وكانت رحلات الصيد المتعة رياضته الأخرى .. رياضة تحمل من الجد ، جنب متعتها البريئة ، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد . ولقد قال الرسول عليه السلام يومها (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي) ، وقال (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) .. وليست مهارات الصيد سوى محاولة – من بين عديد من المحاولات – لتركيز القدرة على الرمي ، وحمايتها من التبدد والنسيلن .

وفي مقابل هذا كان الرجل يحس بالمسؤلية احساسا غامرا : المسؤلية تجاه الزمن ان يضيع ، وتجاه الدم المسلم ان يهدر ، وتجاه الكرامة الإسلامية ان تداس أو تمتهن ، وتجاه الأرض الإسلامية ان تغزى وتقتطع .. كان بعمل ليل نهار ، وكان يقتطع من اوقات راحته البيتية ، فكانت زوجته تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع اصحاب الاشغال ، وتارة يقرا كتابا اتاه ويرد عليه .. وما ان يحل فجر اليوم التالي حتى يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة ..

في عام ٥٤٤ هـ عندما ورده نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين قال : لا انحرف عن جهادهم ، إلا انه مع ذلك كان يكف أيدي اصحابه عن العبث والافساد في الضياع المحيطة بدمشق ، ويحسن إلى فلاحيها ويعمل على التخفيف عنهم . وكتب إلى أمراء دمشق ((لايحل لي القعود عنهم والانتصار منهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بألفرنج وبذلكم لهم أموال الضعفاء ..)) .. واصر طيلة الفترة التالية على عدم الزحف على دمشق ومحاربة اهلها تحرجا من قتل المسلمين ، وقال ((لا حاجة إلى قتل المسلمين بايدي بعضهم بعضا وانا ارفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين)) .. فهو يعلم جيدا ان الامة إذا قتلت نفسها رخصت على العدو ، واذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصا في مجاهدة هذا العدو .. معادلة واضحة يمكن ان تفسر لنا الكثير من هزائم الامم وانتصاراتها على السواء .. ومن ثم كانت عادة نور الدين انه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، أما ليستعين بها على قتال العدو أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرها .. لقد كان ((الدم عنده عظيما)) كما يقول ابن الأثير.

ويبدو شعور نور الدين بالمسؤولية تجاه الأرض الإسلامية ، في ذلك الجواب الذي بعث به مع رسول حاكم اذربيجان ، الذي كان امير الموصل قد استنجد به ضد نور الدين ، والذي بعث يتهدده فيه بان لا سبيل له – أي لنور الدين – إلى الموصل . قال نورالدين للرسول : ((قل لصاحبك ، انا اولى باخي ، امير الموصل ، منك ، فلم تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من اصلاح الاحوال في الموصل يكون الحديث معك عند باب

همذان ، فانك قد ملكت نصف بلاد الإسلام واهملت الثغور حتى غلب الكفار عليها، وقد بليت انا وحدي باشجع الناس (ويعني الصليبيين) ، فاخذت بلادهم واسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي ان اتركك على ما انت عليه ، فانه يجب علينا القيام بحفظ ما اهملت من بلاد الإسلام ، وازالة الظلم عن المسلمين)) ..

تساءل أحد الطلاب : ها نحن قد عرفنا بعض الملامح الذهنية والنفسية والاخلاقية لشخصية هذا الرجل الفذ .. وهي ملامح تدعو إلى الاعجاب والتقدير حقا .. فهل لنا ان نعرف شيئا عن الملامح الروحية ؟

أجاب الأستاذ : بالضبط .. هذا ما كنت سانتقل إليه بعد لحظات .. اننا إذا واصلنا التجوال عبر منحنيات شخصية نور الدين ودروبها وملامحها ، فسنجد انفسنا إزاء تجرد الرجل وتقواه .. وحينذاك نكون قد حضرنا بمواجهة اعظم التجارب في حياة الرجل ، واثقلها حجما ، واشدها تركيزا .. مساحة ناصعة ، ومؤثرة ، من اروع المساحات في تكوين الشخصية التي بين ايدينا ، وأكثرها ضوءا وعطاءا ..

ان التجرد العظيم الذي يمارسه الرجل ، إنما يمارسه وهو في قمة السلطة والجاه والاغراء .. وانه لضغط ساحق يتطلب دفعا هائلا من داخل الشخصية البشرية .. من نسيج الذات لحمة وسدى ، لتحقيق التوازن المطلوب ، والخروج من التجربة الصعبة بنجاح .. اننا هنا نستحضر في أذهاننا صورة الخليفة الاموي الراشد عمر بن عبد العزيز وهو يمارس ببطولة نادرة الامتحان العسير ويخرج منه بانتصار يشرف الانسان المسلم في كل زمان ومكان .. رغم انه فقد عبر ساعاته الصعبة ولحظاته الباهظة زهرة عمره وسني شبابه ، وهو في العنفوان ، بل انه فقد حياته نفسها ثمنا للفوز الذي حققه للعقيدة والتاريخ والشخصية البشرية على السواء ..

قال أحد الطلاب : ماذا لو حدثتنا في اللقاءات القادمة عن هذا الرجل الذي يطلق عليه اسم (الخليفة الاموي الراشد) لكي تكون المقارنة اشد وضوحا ..

أجاب الأستاذ وهو يهم بالنهوض : ان ما تبقى أمامنا من وقت لا يكاد يكفي لتغطية الموضوع الذي بين ايدينا فانى لنا ان نتحول إلى موضوع غيره ؟

(١٧)

في اللقاء التالي واصل الأستاذ حديثه الذي كان قد بدأه عن تجرد نور الدين والبعد الروحي الذي يكمن وراءه .. وقال : ان تجربة الرجل – كما سبق وان ذكرت – تقفنا أمام تجربة سلفه عمر بن عبد العزيز .. ومن وراء عمر يستحضر الذهن حشدا آخر من الرجال الكبار الذين صنعهم كتاب الله وصاغهم رسوله الكريم .. وهو الحشد الذي يقف الرسول ، عليه السلام ، نفسه في قمته ولاريب .. يضرب مثلا باهراً على قدرة المسلم على التجرد وهو في قمة الدنيا ، يطل من سقفها العالي ، وما فوقه إلا الله : (ايها الناس – قال الرسول – ردوا علي ردائي ، فو الذي نفس محمد بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعما لرددته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا) .. (ايها الناس – قال الرسول ، بعد ان انتزع وبرة من جمل يقف قريبا منه – والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس والخمس مردود عليكم ..) .. ويوم اشتكى إليه اصحابه الجوع ، وكشفوا عن بطونهم التي عصبها كل منهم بقطعة من حجارة ، كشف هو صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقد عصبها بقطعتين .. أما أبو بكر .. وعمر .. وعثمان .. وعلي .. وسائر رجالات الجيل الأول الذي عايش تجربة نبيه وقائده .. فتلتمع صور تجارب تجردهم العظيم في الذهن ضوء كثيفا مركزا كالشهب الثاقبة في الليالي الظلماء .. ولن يتسع الوقت لاستعراض تفاصيلها ..

ان التجرد يعني – في نهاية التحليل – قدرة المسؤول المسلم على مجابهة ثقل السلطة ، واغراءاتها وأبوابها المشرعة ، التي تنفتح – من حيث لا يشعر الانسان احيانا – على الاخذ الذي يزداد ويزداد حتى يغدو بمرور الايام سرقة وسلبا وابتزازاً وتخمة وفسادا .. وتتقفل على العطاء الذي يشح ويشح حتى يغدو جبنا وبخلا وجبروتا وطغيانا .. اننا هنا اذن بمواجهة ما يمكن تسميته باخلاقية العدل الاجتماعي .. ان المسؤول المسلم

إذا ما وصل السلطة يوماً فعليه أن يتحقق بهذه الاخلاقية : ان ينقلب على ذاته ، ان يغير في تركيبها الداخلي مؤشراتها ودوافعها ومنازعها ، ويسكت – من جهة أخرى – نزواتها وشهواتها .. وان يقابل التاريخ متجردا من هذا كله، عاريا من كل الستائر التي قد تحجب وتخفي .. قديرا على العطاء الدائم ، صامدا بوجه الاخذ والاغراء ..

وتقوى الله هي القوة الباطنية التي تمنح المسؤول المسلم القدرة على المجابهة الصعبة بالتغيير الذاتي الدائم والتبديل المستمر ، وتعطيه امكانية استجاشة كل الدفوع الممكنة في باطن الشخصية البشرية لمجابهة الضغوط الخارجية الباهضة، وحل المعادلة الصعبة ، وتحمّل الجهد الشاق ، والتعب ، والنصب ، والارهاق ..

وبدون هذا التجرد الذي تصنعه التقوى .. بدون اخلاقية العدل الاجتماعي هذه .. لن يتحقق عدل أبدا ، لانه إذا انكسرت همة القيادة إزاء المال والاغراء .. إذا انشرخت القمة واتسع شرخها ، فليس لنا ان نتوقع حقا أو عدلا ، وليس لنا ان ننتظر فرصة سحرية تاتينا بنتائج ، غابت شروطها الأساسية في بطون القيادة وفروجها .. ان السقيم لا يمنح المرضى صحة وعافية .. والبئر المرة لا تنضح إلا المر والعفن ..

تساءل اكثر من طالب عن الابعاد الحقيقية لتجربة نور الدين في (التجرد).. والى اى مدى ذهب الرجل في (تقواه) ، وهل قدر في نهاية الأمر على حل المعادلة الصعبة والخروج من المحنة بسلام ؟

واجاب الأستاذ : انها اسئلة في محلها تماما .. ولن يكون إلا للوقائع نفسها ان تجيبنا عنها لكي تمنحنا القناعة والرضا والاطمئنان .. ان ابن الأثير ، المؤرخ المعروف، يسال هذا السؤال : ((ان قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك ألفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟)) ويجيب ((ليذكر نبينا صلى الله عليه وسلم فانه قد حكم على جزيرة العرب كلها.. وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ..)) ويخلص أخيرا

إلى هذه النتيجة التي يعدها مفتاحا لتفسير هذه المواقف جميعها : ((انما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها)) ..

وهل كان نور الدين محمود خالي اليد وهو يحصل في معركة واحدة مع العدو الصليبي على مبلغ قدره ستمائة ألف دينار ؟ .. كلا بطبيعة الحال .. فهل قدر على ان يخلي قلبه من محبة الدنيا ؟

ثمة حشد من المؤرخين بعضهم معاصر لنور الدين ، وبعضهم قريب منه ، يقدمون لنا الاجابة عن هذا السؤال ، فلنستدعهم واحدا واحدا .

العماد الاصفهاني : كان رسم نفقته الخاص في كل سنة مبلغ ألفي قرطاس (قيمة القرطاس مائة وخمسون درهما) يصرفه في كسوته ونفقته وماكوله ومشروبه وحوائجه المهمة ، حتى اجرة خياطه وطباخه .. ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين واهل الفقر .. وأما ما يهدى إليه من الثياب والتحف وهدايا الملوك .. وكل دقيق وجليل ، فلا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه ، ثم يخرجه إلى القاضي ليحصل اثمانه الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد ..

ابن الأثير : احضر نور الدين الفقهاء واستفتاهم في اخذ ما يحل له ، فاخذ ما افتوه بحله ولم يتعدّه إلى غيره إلى البتة ، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع .. وحكي لي عنه انه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرقيق مذهبة ، فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل فقير فأمر بها له قائلا : أرجو ان اعوض عنها في الاخرة .. وقال رضيع الخاتون ، زوجة نور الدين ، انها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فارسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال : من اين اعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ والله لا اخوض نار جهنم في هواها !! ان كانت تظن ان الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! انما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم .. وانا خازنهم عليها فلا اخونهم فيها .. ثم قال: ان لي بمدينة حمص ثلاثة

دكاكين ملكا قد وهبتها اياها فلتاخذها .. وكان يحصل منها قدر قليل، نحو عشرين دينارا !!

ابن كثير : كان نور الدين عفيف البطن والفرج ، مقتصدا في الانفاق على اهله في المطعم والملبس ، حتى قيل انه كان ادنى الفقراء في زمانه اعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا ..

سبط بن الجوزي : كان نور الدين إذا اقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها ، انما ياكل من طبق خاص فيه طعام بسيط .. وحدثني رجل من اهل حران قال : خرج نور الدين يوما من حران قاصدا الرها ، فاجتاز على نهر وفقير نائم على ضفته ، فوقف وسلم عليه ، فرفع الفقير راسه وقال بيده : كذا .. ومعناه : في أي شيء انت ؟ فحرك نور الدين اصبعا واحدا وحرك الفقير اصبعين ، ومضى نور الدين باكيا فقيل له : ما هذا ؟ قال : أشار الفقير الي وقال : في أي شيء انت من هذا كله ؟ لماذا ؟ فقلت من اجل رغيف واحد ، أشار الي باصبعيه كانما يقول : انا اكل كل يوم رغيفين وانا مثلك !!

أما مقر سكنى حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن ، فكانت داراً متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، والحق بها صفّة يخلو فيها للعبادة ، فلما ضربت الزلازل دمشق بنى بازاء تلك الصفة بيتاً من الاخشاب .. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الاخشاب .

وهو يتفوق بتقواه على اغراءات الحياة واللقب والسلطان .. يتجرد عن كل ما يمكن ان يقطع الحبل المتين بينه وبين طرفي القضية : الله .. والجماهير .. ثمة حشد زاخر من الالقاب كانت الخلافة العباسية الاسيرة في بغداد تمنحه لكبار القادة والمجاهدين لانه لم يكن بمقدورها ان تمنح شيئا آخر .. وعندما تفقد قيادة ما القدرة على الاسهام الجاد في حركة التاريخ يتحول همّها إلى منح النياشين والالقاب لمن يقدرون ، من اجل ان تغطي عجزها وانكماشها .. لكن رجلا(فاعلا) كنور الدين يرفض هذه المنح خوف ان يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف .. وخوف ان تقود

إلى نوع من انواع الاعتداد والغرور كثيرا ما انتهى اليهما القادة والعاملون .. أما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض ، فانه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الاغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله !!

(١٨)

واصل الأستاذ حديثه عن تجرد نور الدين وتقواه .. قائلا : كنت أتحدّث في اللقاء الماضي عن رفض نور الدين للالقاب كمظهر فارغ يكشف عن الكذب والزيف .. واريد اليوم ان اشير الى عدد من الوقائع التي تؤكد ذلك ..

تلقى يوما من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها (قائمة) بالقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد : ((اللهم اصلح المولى السلطان الملك العادل العالم الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر ، نور الدين وعدته ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، وفي الأمامة واثيرها ، فخر الملة ومجيرها ، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين ، ناصر الدولة امير المؤمنين ..)) ..

لكن نور الدين اسقط جميع الالقاب وطرح دعاءا واحدا يقول ((اللهم واصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي)) ..

وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيدا من الاضواء عن الموضوع ، وتتضمن كلمات وجملا من إنشاء نور الدين نفسه .. روى انه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني – بعد ان استفزته كثرة الالقاب – يأمره ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه . فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه ثم قال : وارى ان يقال على المنبر (اللهم واصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لاعداء دينك ، ابا القاسم محمود بن زنكي) .. فكان جواب نور الدين : ((هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد)) وكتب بخطه في اعلى الصفحة: ((مقصودي ان لا يكذب على المنبر. انا بخلاف كل ما يقال .. افرح بما لا اعمل ؟))

والتفت إلى وزيره قائلا ((الذي كتبت به جيد اكتب به نسخا إلى البلاد)) ..

وفي ساحة الحرب ، حيث الموت على بعد خطوات .. وحيث لقاء الله آتٍ وراء كل لحظة .. كان نور الدين يذوب تواضعاً واشفاقا ، وتقفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله ، حيث تتمزق بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من اجل تمزيقها .. لكي يقف نقيا .. عاريا .. في الساحة التي عشقها وتمناها .. ليس ثمة – في الحرب – موقف وسط .. أما ان يكون القائد جبارا في الأرض .. أو صدّيقا ..

عندما التقت قواته عند حارم بالصليبيين الذين يفوقونهم عدة وعددا .. انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال : يا رب هؤلاء عبيدك وهم اولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر اولياءك على اعدائك .. ايش فضول محمود في الوسط ؟ ويعلق أبو شامة على هذه العبارة قائلا : يشير نور الدين هنا إلى انك يارب ان نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ان كان غير مستحق للنصر .. وبلغني انه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا .. من هو محمود حتى ينصر ؟

وتحضرنا هنا – ثانية – رواية ابن الأثير ، حيث يبدو نور الدين لا فدائيا فحسب، ولكن فقيها بقدر الله ، متبصرا بدور الانسان في حركة التاريخ .. عالما ان ارادة الله إذا شاءت تهيأت الأسباب .. ولن يعجزها شيء .. ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين والوفهم .. فان آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق .. ومن ثم يستوي – عبر هذه الرؤية – هذا القائد أو ذاك .

كان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم ارزقها . وسمعه يوما الأمام قطب الدين النيسابوري فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين ، فانك عمادهم ، وان اصبت في المعركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا واخذه السيف .. ويجيئه جواب الرجل الخبير : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ بلاد الإسلام ، ذلك هو الله الذي لا اله إلا هو !!

الله .. الذي هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وما الناس ، ابتداء من اصغر جندي فيهم حتى اكبر قائد ، الا ادوات فاعلة في يده ، يحركها وفق خرائطه المعجزة لتحقيق كلمته في الكون .. الله .. وكفى ..

ذلك هو موقع التجرد الكامل والتقوى الفاعلة .. تجرد القمة الذي لو ادركته قياداتنا عبر التاريخ ، لعرفت كيف تصنع هذا التاريخ لصالحنا لا لصالح الخصوم والاعداء ، ولسعادتنا في الأرض لا لشقلئنا وتعاستنا .. ولتفرّدنا على الامم لا لذّلنا وتبعيتنا وضياعنا .. رغم ان نور الدين نفسه كان سيضيع لو حاول القادة الذين سبقوه أو اعقبوه .. ان يكونوا مثله ..

كانت دمشق جنة الدنيا – يومها – ترغم الناس على ان يخلدوا إليها حينا بعد حين ، يستجموا في ظلالها ويستروحوا نسائمها ، ويشربوا ماءها الحلو ، ويأكلوا من ثمرها ، وكان احرى بنور الدين ان يؤوب – بعد النصب الطويل – إلى قاعدته ليرتاح .. لكنه يرفض هذا لان ساحة أخرى تناديه وتمنحه المتعة كذلك .. ساحة الجهاد .. يحدثنا العماد الاصفهاني فيقول : ((حضرت عند نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وازهار رياضها .. وكل منا يمدحها ويطريها ، فقال نور الدين : انما حب الجهاد يسليني عنها ، فما ارغب فيها)) ..

فما ارغب فيها !! لكاننا نحس بنظرات نور الدين وهي تجوس في منحنيات نفسه ودروب وجدانه ، تفتش عن بقايا الرغبة لكي تستاصلها من مكامنها ، فلا يبقى هناك إلا احساس غامر بتعشق الجهاد .. حيث يظل الانسان يقاتل ، معلقا وجوده كله باحدى اثنتين : النصر أو الجنة.

ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوما من دخوله اياها عام ٥٦٦ هـ فيساله اصحابه : انك تحب الموصل والمقام بها ، ونراك اسرعت العود ؟ فيجيب : قد تغير قلبي فيها فان لم افارقها ظلمت ، ويمنعني ايضا انني ها هنا لا اكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد .

تساءل أحد الطلاب ، وكأنه يستل نفسه من حلم جميل : لقد صنع الرجل بتقواه العميقة ، تجرده العظيم .. فكيف صنع تقواه ؟ باى وقود نقي اشعل فتيلة الروح فمنح تجربته الذاتية الضوء الذي تجاوز بها مواقع الظلمات ؟

أجاب الأستاذ : ها هنا ايضا نستدعي المؤرخين والشهود .. وندع الوقائع نفسها تعطينا الجواب ..

قال أبو شامة : ((سمعت ابن شداد يقول : بلغنا باخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم انه كان اكثر الليالي يصلي وينادي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدّي الصلوات الخمس في اوقاتها ، بتمام شرائطها واركانها .. وكان فرنجة القدس يقولون: ان نور الدين له مع الله سر فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، إنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، والله سبحانه يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ، وما يرد يده خائبة ، فيظفر علينا)) .. وقال ((كان من عادة نور الدين انه كان ينزل إلى المسجد بغلس ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح)).

وقال ابن الأثير : ((حدثني صديق لنا بدمشق – كان رضيعاً لزوجة نور الدين – فقال: كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة)) ..

وقال ابن كثير : ((كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعا للاثار النبوية ، محافظا على الصلوات في الجماعات ، كثير التلاوة ، محبا لفعل الخيرات ، عفيف البطن والفرج ، لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولارضى .. صموتا وقورا ..)) .. وهنالك الكثير غير هذه الروايات لا يتسع الوقت لا ستعراضها جميعا ..

انها اطالة (التعبد) اذن .. التعبد الخالص ، الدائم ، العميق الذي اراد له الله سبحانه ان يكون طريق التقوى وروحها في الوقت نفسه .. ولن يكون ذلك إلا بان

يمارس في اطار من (الذكر) الذي يحقق التواصل مع حقيقة الالوهية ، والتجاوب مع حركة الكون والموجودات .

ويمضي نور الدين في تعبده اناء الليل واطراف النهار .. لكنه ليس ذلك التعبد السالب الذي يدفعه إلى الفرار من المسؤولية .. بل ذلك الذي يضعه في قلب المسؤولية وهو اعمق وعيا واشد خشية وامضى عزيمة واقدح ذكاء ..

(١٩)

ما ان اكتمل الطلبة حتى بدأ الأستاذ محاضرته بالاشارة إلى الايجابية التي كانت تميز عبادة نور الدين .. وما لبث ان استخرج من أحد جيوب حقيبته قصاصة وقال وهو يقرأ فيها :

ان المؤرخ ابن قاضي شهبة ، في اشارة عابرة له ، يسلط الضوء على هذه المسالة فيقول ((كان نور الدين كثير الصيام ، وله اوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم اشغال المسلمين عليها ثم يتم اوراده)) ..

يقدم اشغال المسلمين عليها ثم يتم اوراده .. هذا هو المنطوق الذي علمنا اياه الإسلام والذي يجعل التعبد ، الذي هو غاية الخلائق ، ممارسة ايجابية تضرب في اعماق الناس فتغير نفوسهم ، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته ..

ويمضي نور الدين في تعبده حتى تتكشف له حقيقة الحياة الدنيا وتتبين مواقع الموت القريبة .. ويظل حسه وذهنه ووجدانه مطبوعة بالرؤية الرصينة للكون والحياة والاشياء .. لا تعتمها اغراءات السلطة ولا تحيطها بالضباب والظلمة نزغات القوة والجاه والسلطان ..

حكى الأمير بها الدين علي بن الشكري ، وكان قد صحب نور الدين منذ ايام الصبا وانس به ، فقال : ((كنت معه يوما في الميدان – بمدينة الرها – نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار وراء ظهورنا ، فاجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : اتدري لاي شيء اجرى فرسي والتفت ورائي ؟ قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها)) .

وفي أول ايام عيد الفطر المبارك من عام ٥٦٩ هـ ، حينما خرج إلى الميدان الاخضر شمالي دمشق لبدء الاحتفالات هناك ، تقدم منه أحد كبار أمرائه وساله : ترى : هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ أجاب نور الدين : هل نكون بعد شهر ؟ فان السنة بعيدة!!

بلى .. ان السنة بعيدة على الذين يقدرون على تصور الحدود الهشة ، الخفية ، التي لا تلمس ولا ترى .. بين الحياة والموت .. السنة بعيدة .. وقبل ان يستكمل الشهر الذي خمنه الرجل التقي موعدا لرحيله ، قبل ان يستكمل دورته ، كان الرجل قد فارق الحياة بعد ان سبر غورها وهو يعمل في قمتها .. على سقفها العالي ..

اجال الأستاذ بصره في وجوه تلامذته ، فإذا بعيونهم تلتمع .. فكأن الدموع الحبيسة قد آثرت ان تظل معلقة هناك تعلن عن مدى تعلقهم بالرجل .. الاسوة .. الذي فتح بسلوكه الفذ وتجربته الغنية المتالقة .. طريق النصر واسعا عريضا .. انهم في هذه اللحظات المؤثرة يعايشون الرجل الذي أرهص بتحرير فلسطين واشار بكلتا يديه .. إليها .. إلى الأرض الغالية التي يرنو كل واحد منهم إلى اليوم الذي سيعود فيه نور الدين من اجل تطهيرها وتحريرها من غزاة القرن العشرين ..

وقال الأستاذ وهو ينتزعهم من انفعالهم الصامت انتزاعا : انني أريد قبل ان نغادر الحديث عن تجربة الرجل الذاتية ، ان احكي لكم شيئا عن (هويته) .. عما تتضمنه بطاقته الشخصية من معلومات .

وعلق أحد الطلاب بصوت متهدج : ذلك ما اردت ان اسال عنه ..

بينما واصل الأستاذ وهو يقرأ في عدد من القصاصات المبعثرة بين يديه : ولد نور الدين أبو القاسم محمود عند طلوع شمس السلبع عشر من شوال سنة ٥١١ هـ بحلب، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القران والعبادة .. وكان أبوه عماد الدين زنكي يقدمه على بقية اولاده ويرى فيه مخايل النجابة ..

كان اسمر اللون ، طويل القامة ، واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين، ذا لحية خفيفة في حنكه .. مهيبا متواضعا ، عليه جلالة ونور ..

تزوج عام ٥٤١ هـ زواجه الذي لم تكن له من ورائه جارية ولا سرية .. تزوج من عصمة الدين خاتون ابنه معين الدين انر حاكم دمشق ، بعد ان ترددت المراسلات بين الرجلين إلى ان استقرت الحال بينهما على اجمل صفة ، وتاكدت الأمور على ما اقترح

كل منهما .. وقد خلف الرجل من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح اسماعيل، الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شابا لم يبلغ العشرين من العمر من جراء مرض ألم به عام ٥٧٧ هـ..

واحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧ هـ ثم توفي في دمشق طفلا ..

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الاكبر ، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل .. ونامت ليلة عن وردها فاصبحت وهي غضبى ، فسالها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها ، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك لقيام الليل .. وصفها المؤرخون بانها كانت من احسن النساء واعفهن واكثرهن خدمة .. متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ، وكانت لها اوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم ..

وعرف عن الصالح اسماعيل تقواه العميقة والتزامه الاخلاقي المسؤول .. حتى لقد رفض الاخذ براي الاطباء في شرب شيء من الخمرعندما زادت به علة القولنج التي اودت بحياته . وقال : لا ، حتى اسال الفقهاء .. فلما افتوه بالجواز لم يقبل ، وسال أحدهم : ان الله تعالى قرب اجلي ، ايؤخره شرب الخمر ؟ قال : لا .. فاجابه الأمير : فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علي !!

في صبيحة يوم الاثنين ، ثاني ايام عيد الفطر المبارك من عام ٥٦٩ هـ خرج نور الدين إلى الميدان الاخضر شمالي دمشق لممارسة الالعاب الرياضية والتمارين الفروسية ، والاحتفال بختان ولده الملك الصالح اسماعيل .. فما عاد إلى بيته إلا وقد تمكنت منه الذبحة الصدرية وراحت تضيق عليه الخناق ، وهو معتزل في بيته الخشبي المتواضع بشمالي القلعة.

يقول المؤرخ ابن الأثير : ((حكي لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي ، وهو من حذاق الاطباء قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكن المرض منه وقارب الهلاك

فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعبد في اكثر اوقاته ولم ينتقل عنه بعد ان ألم به المرض ، فلما دخلنا إليه ورأينا ما به قلت له : كان ينبغي الا تؤخر احضارنا إلى ان يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فألان ينبغي ان تنتقل عن هذا الموضع إلى مكان فسيح .. وشرعنا في علاجه فلم ينجح فيه الدواء وعظم الداء ..)) ..

وما لبث ان توفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال ، ووقف الناس كما يقول الاصفهاني : ((يضطربون ويضطرمون)) .. ودفن في بيته ذاك الذي كان يلازم الجلوس والتعبد والمبيت فيه .. ثم نقل إلى مقبرة تجاه مدرسته التي بناها للحنفية عند سوق الخواصين في الشارع الغربي .. رحمه الله .

رد الطلاب جميعا بنبرات صاغها الحزن والاعجاب : رحمه الله ..

بينما واصل الأستاذ حديثه : وها هو فارس جديد يظهر في الميدان لكي يحمل الراية ويواصل الطريق .. انه رجل نور الدين الأول وساعده الايمن : الناصر صلاح الدين..

ولكن بعد كم من الزمن جاء هذا المحرر الكبير ؟ وبعد جهود كم من القادة الذين قاتلوا وضحوا واستشهدوا في سبيل الهدف الواحد : اخراج الغزاة من الأرض التي استولوا عليها وتحقيق الحرية التي يتعشقها الجميع ؟

ان الأرض الإسلامية لا يمكنها ان تنتظر طويلا حتى يجيئ الناصر صلاح الدين لكي يحرر فلسطين .. فطلعت على العالم ، منذ السنين الأولى للصراع ، بابطال قادوا المسلمين إلى مشارف النصر العظيم .. تسلم الواحد منهم الراية من الآخر طيلة عقود عديدة ثم سلمها للذي يليه بعد ان اضاف إلى منجزات الذين سبقوه الكثير الكثير .. وهكذا حتى تم فتح الطريق أمام نور الدين وصلاح الدين والناصر قلاوون للسير فيه حتى النهاية ، حيث عادت الأرض والدولة إلى الامة التي صبرت طويلا على صراع قاس رهيب تحتم سنة الله الصبر عليه ..

ولكن نور الدين ، هذا الرجل الفذ ، يظل نسيج وحده من بين كافة أبطال المقاومة في تاريخنا .. فما من رجل ، عبر خط المقاومة الطويل ، استطاع ان يكافح بنفس القوة والصبر على جبهتي الذات والتاريخ .. كنور الدين محمود ..

(٢٠)

والان بعد ان عرفنا شيئا ليس بالقليل عن معركة نور الدين محمود الرئيسية التي هي أساس كل المعارك في الخارج .. معركة الذات والتغيير الذاتي التي سماها الرسول المعلم عليه السلام بالجهاد الاكبر .. المعركة التي يجابه الانسان فيها القوى التي تسعى إلى تفكيك شخصيته وتدميرها ، ووضع جدران فاصلة بين ايمانها ومطامحها وبين سلوكها العملي .. تلك المعركة التي حقق الرجل فيها انتصارا فذا لم نشهد له مثيلا في التاريخ إلا في القليل النادر .

الآن .. لنا ان نتحول إلى جبهة الانجاز الداخلي في الخطوط الخلفية للقتال – إذا صح التعبير – ذلك الانجاز الذي يستهدف تكوين المجتمع الموحد ، المستنير ، القادر على البذل والعطاء .. المستعد للصمود إزاء اشد الضربات ، المتهيئ للرد على كافة التحديات .. واذا كان حديثنا في اللقاءات السابقة قد انصب على معركة تكوين الانسان الفاعل .. فسيتجه في اللقاءات التالية إلى معركة تكوين المجتمع الفاعل .. والتفاصيل بين ايدينا كثيرة .. والحمد لله .. ويمكن ان نصنّفها بعد البحث والتمحيص إلى قطاعات ثلاثة : القطاع الاداري فالاجتماعي فالثقافي ، وسنتجاوز – لضيق الوقت – القطاع الأول لكونه مسالة فنية في معظم مساحاتها .. وسنقف طويلا عند القطاعين الاخرين : المجتمع والثقافة .. لنعاين ما حققه الرجل وجماهير امته من منجزات في حقليهما الخطيرين ، ولنرى كيف تمكن هذا القائد من تكوين المجتمع الذي يسوده العدل وتتغلغل في كيانه قيم العلم والايمان .. فها هنا يكمن عامل خطير آخر من عوامل الانتصار في الطريق الذي يقودنا إلى فلسطين في كل مكان وزمان ..

ولنبدأ بالمسالة الاجتماعية ..

فلقد اولى نور الدين محمود المسالة الاجتماعية اهتماما بالغا .. وادرك ان أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الاحسن والامثل لن يستكمل ابعاده إلا من خلال اعادة تشكيل الارضية الاجتماعية بالحق والعدل ، بحيث لا يبقى هنالك ظالم أو

مظلوم .. فمن خلال هذه الثغرة الخطيرة .. من خلال هذا التقابل المدمر في الحياة الاجتماعية، تضيع طاقات وقدرات ، كان يمكن ان تعطي وتتفتحّ لولا الجوع والمسغبة ... بينما في الجهة الأخرى يتمركز ، بسبب تكدس غير طبيعي في الثروة .. العفن والتفكك وألفساد ..

كان نور الدين يشكل موقفه الفعال تجاه المسالة الاجتماعية من خلال الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ .. ولقد اغنى نور الدين بسياساته الاجتماعية التي اعتمدها في ميادين المال والاقتصاد والعلاقات الجماعية ، اغنى الرصيد الواقعي للتجربة الإسلامية .. وقدم ((نموذجا)) في ميدان التطبيق العملي ..

يبدو واضحا من خلال تتبع النصوص التي يستطيع الباحث جمعها عن هذه المسالة ، كيف ان نور الدين كان يرى في (الدولة) مؤسسة لحماية حقوق جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم .. وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الاخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع الذي مارسته الكثير من الحكومات في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي .. وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسع الضرائبي السالب ، والامتناع – في المقابل – عن تقديم الخدمات..

ومن اجل تجاوز هذا الموقف الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماما ، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الادنى المتاح ، ونشط من اجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير الامة .. وكان يحوط هذا التحرك – الذي كان يتصاعد بمرور الزمن – برقابة صارمة على أموال الدولة العامة وقطع اليد التي تسعى إلى ان تمتد إليها بسوء .. كما كان يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من ابناء الامة من اجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية .. يستند في ذلك كله على قدر من (الموارد) كان – ولا ريب – قديرا على تغطية متطلبات (العطاء) الواسعة التي نفذها نور الدين محمود ..

ولنبدأ بمتابعة هذه السياسات باقل قدر من التفصيل مركزين على خطوطها العريضة فحسب..

تساءل أحد الطلاب : سوف نبدا بسياساته الضرائبية اليس كذلك ؟

أجاب الأستاذ : نعم

قال الطالب : فهل يعتبر الموقف من (الضريبة) تخفيضا أو تصعيدا ، واحدا على مدار التاريخ والاوضاع ؟

أجاب الأستاذ : أبدا .. فان قضية الضرائب – ككثير من المواقف في الحياة والمجتمع – تحمل – وفقا للظروف التاريخية – جانبي السلب والايجاب .. فالسياسة الضرائبية ليست مطلقة ، إنما هي نسبية بالاحالة إلى مجموع الظروف الذاتية والموضوعية التي تتحدد فيها ..

فتارة يكون التوسّع فيها عدلا وحينا يكون ظلما .. وبالعكس ..

عندما يفرض في العصر الحاضر – على سبيل المثال – المزيد من الضرائب والضرائب التصاعدية على ذوي الدخول الكبيرة من اجل احداث حالة التوازن ، لا يمكن إلا ان يعد ذلك اجراءا عادلا ، لان الاجهزة الحكومية اصبحت – في عددمن الدول على الاقل – ادوات كفؤة ومتخصصة وموضوعية – إلى حد ما – في مهمة تحويل هذه الضرائب إلى جهاتها الحقيقية .. ورغم ذلك فاننا نجد في عصرنا هذا الكثير من الاستغلال والابتزاز والتوجيه اللاموضوعي لحصيلة الضرائب .. أما في عصر آخر كعصر نور الدين محمود ، كان الحاكم الأعلى فيه – خليفة ام سلطانا ام ملكا ام اميراً – هو الرجل الأول في الدولة ، وكان بمقدوره ان يتصرف باموالها كيفما يشاء .. في عصر(المصادرات) التي كانت تستهدف الاثراء الشخصي فحسب .. في عصر الضرائب المتزايدة التي لم تكن تفرض إلا لحل ازمة عابرة تتعلق بفرد أو هيئة فحسب .. في عصر كهذا كان اسقاط الضرائب يعد – ولاشك – خطوة ايجابية في طريق العدل الاجتماعي ..

اخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة ، وكان حينا بعد حين يصدر الأوامر ، ويعمم الكتب والمناشير ، باسقاط حشود الضرائب (اللاشرعية) التي كانت تاخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها عدد من الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين ، والتي كان لا يزال عدد آخر منهم يعتمدها .. وكانت شعبيته تزداد باطراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يلغيها .. وكان هذا يؤكد ما سبق وان قلناه قبل قليل من ان اجراءاته الضرائيبية جاءت تعزيزا لسياسته الدائبة من اجل تحقيق العدل الاجتماعي .. وكان ينتهز ألفرص المناسبة .. فتح من الفتوح ، أو انتصار من الانتصارات ، أو حادث من الأحداث ، أو كلمة ذكرى تهز ألفكر وتستجيش عواطف التجرد والعطاء ..

عندما دخل دمشق عام ٥٤٩ هـ اصدر منشورا باسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والاسواق .. وقرئ المنشور على المنبر ، فاستبشر الناس بصلاح الحال ورفعوا دعاءهم إلى الله بدوام ايام نور الدين ..

وفي عام ٥٥٢ هـ - عندما دخل شيزر – اصدر منشوره الشهير باسقاط حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم انحاء دولته ، وجاوز المائة والخمسين ألف دينار .. وقد جاء في مقدمته ((.. هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه ، صافحا، واطلقه مسامحا لمن علم ضعفه من الرعايا – رعاهم الله – لضعفهم عن عمارة ما اخربته أيدي الكفار – ابادهم الله تعالى – عند استيلائهم على البلاد ..)) .. وبعد عام واحد اصدر نور الدين منشورا آخر في دمشق قرئ على كافة الناس .. فتلقوه.. بالترحاب ..

وشهد عام ٥٦٤ هـ حملة أخرى لاسقاط حشد من الغرامات والمكوس والضرائب التي لم تشملها الاجراءات السابقة ، مما كان يطلق عليه بعض المؤرخين اسم (إلمظالم والمؤن) .

وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ لم يشأ إلا ان يسقط عن اهاليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس ، وشمل ايضا عددا من مدن الجزيرة الفراتية . وفي العام نفسه اسقط نائبه في مصر (الناصر صلاح الدين) جميع المكوس : صادرها ووارداها ، جليلها وحقيرها ، كما يقول المؤرخ أبو شامة ، ويبين المؤرخ ابن الأثير كيف ان المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة واربعون دينارا ((فاطلقها نور الدين وهذا ما لم تتسع له نفس غيره)) ..

نظر الأستاذ إلى ساعته وقال مبتسما : لقد شغلتنا الارقام هذه المرة ، واعتقد انها ستاخذ منا شيئا من اللقاء القادم .. ولكن لا باس .. فان العصر الحديث الذي نحياه غدا صراعا من اجل الارقام .. شئنا ام ابينا !!

(٢١)

في اللقاء التالي واصل الأستاذ حديثه عن سياسة نور الدين الضرائبية ، وذكر طلبته بما كان الرجل قد اسقطه من الضرائب والمكوس والغرامات .. ثم قال : وفي عام ٥٦٧ هـ قرئ على منابر مصر منشور جديد باسقاط حشد آخر من المكوس والمظالم يحمل اثره الرجعي إلى عام ٥٦٤ هـ. وقد بلغ ذلك مليون دينار ومليوني إردب من الغلال . وفي العام نفسه اصدر نور الدين منشوره الشهير بتصفية العديد من الضرائب الجائرة المتبقية وجاء في مقدمته ((.. وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الاعمال بولايتنا ما أمرنا بازالته الان ، واضفنا ذلك إلى ما كنا اسقطناه أولا ..))..

ويلخص العماد الاصفهاني ، كبير موظفي الدولة ، الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب ((سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج)) . ولعل المراد بالعبارة الأخيرة فريضة الزكاة ، ولعله يشير إلى الاسلوب العادل في جباية الجزية والخراج .. ومهما يكن من أمر فان رجلا ملتزما كنور الدين ما كان يتهاون أبدا في ضريبة شرعية أساسية كالزكاة ..

لقد بلغ الرجل في موقفه من الرسوم والضرائب حد الحساسية المفرطة التي كانت تقضّ مضجعه وتقلق ضميره ، فكان يتهّجد في اعماق الليل ويرفع يديه إلى السماء باكيا متضرعا ويقول : ارحم العشار المكاس .. ويحاول ان يبرر أمام الله وأمام الناس اخذه الضرائب فيقسم: والله ما اخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام .. ويتقدم إلى الخليفة ويطلب منه أن يجعله المسلمون جميعا في حلّ مما كان قد أخذ من أموالهم، فيستجيب الخليفة ويجعل الخطباء على المنابر ينادون بذلك ..

ان هذا الموقف ينقلنا بالضرورة إلى جانب من اهم جوانب سياسة نور الدين الاجتماعية والمالية ، ذلك هو حرصه العجيب على الأموال العامة .. أموال الامة التي هي

حصيلة كدها وكدحها ودمعها وعرقها .. سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس ، ام عامة في أيدي الدولة ..

وهذه المسالة الخطيرة تبدأ في سلوك نور الدين الاجتماعي من المحور الأساسي في سياسات القادة والزعماء والحكام .. من الذات .. من القدرة الاخلاقية على التجرد ، والنزاهة ، ومجابهة اغراء المال والسلطة .. ثم تسلك طريقها، بعد نجاح عملية التغيير والممارسة الذاتية، صوب الخارج ، لكي تطبع اليد الاخلاقية الملتزمة بصماتها على صفحة العالم .. تماما كما فعل الرسول عليه السلام وكما فعل خلفاؤه الراشدون وعشرات غيرهم من قادة الإسلام في تاريخه المضني الطويل .. وها هو نور الدين يتسلم الاشارة الصعبة ، ويواصل الطريق.. ولقد تحدثنا طويلا – كما تذكرون – عن ممارسته الذاتية هذه تجاه المال والاغراء لدى تحليلنا لشخصيته .. ولنا الان ان نتلمس بعض ملامح ومعطيات موقفه (الرسمي) إذا صح التعبير ، تجاه المال العام .. قدر ما يسمح به الوقت .

في عام ٥٥١ هـ كُشف أحد كبار موظفي دمشق : أبو القاسم بن همام الحلبي المشرف على الديوان .. بدأت المسالة بشائعات عن تصرفات الرجل وأنه يستغل منصبه للاثراء الشخصي ، فجرى معه التحقيق وثبتت صحة الشائعات ، فما كان من نور الدين إلا ان أمر بالقبض عليه حالا واعتقاله في دمشق ريثما يصدر أمر جديد بعد التحقق الكامل من التهمة الموجهة إليه .. ثم ما لبث هذا الأمر ان صدر : ان تحلق لحية الرجل ويركب حمارا مقلوبا ، وخلفه من يعلوه بالدرة ، وان يطاف به في اسواق دمشق بعد سخام وجهه ، وينادى عليه : هذا جزاء كل خائن !!

وحدث – مرة – ان اخذ نائبه في الموصل من رجل ألف دينار لسبب اختلقه ، فتقدم الرجل بظلامته إلى العماد الاصفهاني ، فأمرني نور الدين – يقول العماد – بان اكتب إليه بردها عليه ، فأجاب نائب الموصل : ما ينفعني إلا كتابه وتوقيعه .. فانهيت ذلك إليه فقال : ما معنى ذلك ؟ أما يعلم نائبي هناك انك كاتبي واميني ولا تكتب إلا

بأمري ؟ فان خالف كتابك إليه قلعت عينيه !! وحينذاك اسرع نائبه في الموصل يرد على الرجل مبلغ الألف دينار.

ويوما حضر عنده جماعة من التجار وشكوا إليه ان القراطيس (أي اجزاء الدينار) قد انخفضت قيمتها وان ذلك الحق بهم اذى كبيرا ، واشاروا عليه ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلا من القراطيس . فسكت وقتا طويلا ثم قال: إذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية ، فان كل واحد منهم عنده الاف القراطيس فماذا يصنع بها ؟ فيكون سببا لخراب بيته، ورفض – من ثم – الاستجابة لمطلب التجار .

وعندما دخل شيزر عام ٥٥٢ هـ - بعد ان خربتها الزلازل – لم يكن لينسى ان هنالك مالا كثيرا خلفه أميرها السابق ، وان عليه المطالبة به والبحث عنه لانه اصبح جزءا من الأموال العامة . ويذكر المؤرخ ابن العديم كيف انه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها وكيف انها ذكرت له ان الدار سقطت عليهم جميعا وانها خرجت حية من دونهم ولا تعلم شيئا ، وان كان ثمة شيء فهو تحت الانقاض .. ولا ندري ان كان المال قد عثر عليه ام لا ، والاهم من ذلك هو دلالة الموقف نفسه .

ويحدثنا أبو طاهر الحموي الفقيه فيقول : كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد اخرج سجل خراج الاملاك فجعل ينظر فيه ، فلما انتهى إلى خراج معرة النعمان قال : اني عزمت على انتزاع املاكها من أيدي اهلها ، فقد رفع الي عدد من الثقاة ان جميع اهل المعرة يتقايضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك فيشهد هذا له بالمقابل ، وان الملك الذي بايديهم انما حصل لهم بهذا الطريق (وكانت المعرة قد سقطت بايدي الصليبيين حينا من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع الاثباتات والمستندات الخاصة بالملكية) فقلت له : ايها الملك ان الله اوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك ، فان اهل المعرة خلق كثير كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الاملاك من أربابها بمجرد هذا القول .. لا يجوز .. فاطرق نور الدين وقتا طويلا ثم قال : اني امسكها عليهم ثم

اكشف عنها بعد ذلك ، والتفت إلى كاتبه قائلا : اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك ..

وعندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام ٥٦٦ هـ ليكون مسجدا جامعا للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين ، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولي أمر الاشراف على بنائه ، سيما وانه عائد إلى حلب ، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة .. وإنما بحث عن المشرف الامين الذي يطمئن إليه فكان (عمر الملاء) الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون .. ويحدثنا العماد الاصفهاني ، شاهد العيان ، عن الرجل فيقول : ((انما سمي بذلك لانه كان يملأ تنانير الجص باجرة يتقوى بها)).. وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يتستبقي لنفسه شيئا .. وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته ويتبركون بهمته .. وكان نور الدين من اخص محبيه يستشيره في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته .

وقد انفقت على الجامع أموال كثيرة ، واشترى عمر الملاء الاملاك المحيطة به من أصحابها باوفر الاثمان . وعندما تم انشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام ٥٦٨ هـ تقدم إليه عسر الملاء بدفاتر الحسابات التي تضمنت –بدقة عجيبة– تفاصيل الصرف، رفض نور الدين تدقيقها لثقته البالغة بنزاهة الرجل .. عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة .. فاستراح إلى النتيجة .

وحكى أحد احفاد خالد بن القيسراني وزير نور الدين قال : انكسر على ضامن دار الزكاة مال جم ، فحبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما مبلغه ثمانية الاف دينار وحمله إلى الخزانة ، وبقي في الحبس مطالب بما بقي عليه .

وقد انشأ نور الدين مؤسسته الشهيرة (دار العدل) في دمشق لكي تكون بمثابة (محكمة عليا) توقف كبار الموظفين عن تجاوز صلاحياتهم واعتماد مناصبهم للكسب الخاص على حساب أموال الناس وممتلكاتهم .. وكان نور الدين يجلس بنفسه في هذه الدار يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع للنظر في القضايا المختلفة ، وحماية حقوق المواطنين ، مسلمين كانوا أم أهل كتاب ، ورجالاً كانوا أم نساءً ، وافرادا

عاديين ام موظفين كبارا وأمراء .. ولنا ان نذكر هنا – على سبيل المثال – كيف ان اسد الدين شيركوه ، رجل نور الدين الأول ، وفاتح مصر ، لم يترك بعد وفاته سوى دنانير قليلة .

(٢٢)

قال الأستاذ : ما دام الحديث قد جرنا في اللقاء الماضي إلى (دار العدل) ، تلك المؤسسة التي انشأها نور الدين محمود كمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ، وما دامت المسألة (القضائية) ترتبط بقضية العدل الاجتماعي ارتباطا وثيقا فلا بأس من ان نتحدث قليلا عن موقف الرجل حيالها ..

لقد اولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماما كبيرا ، وجعلها – بما انها الاداة التنفيذية لاقرار مبادئ الحق والعدل ، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم – في قمة اجهزته الادارية ، وخول القضاة ، على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية ، صلاحيات واسعة ، ان لم نقل مطلقة ، ومنحهم استقلالا تاما في دراسة القضايا المعروضة عليهم واصدار احكامهم بصددها ، وتوج ذلك كله – كما رأينا - بانشاء (دار العدل) التي كانت بمثابة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين وارغامهم على سلوك المحجة البيضاء ، أو طردهم واستبدالهم بغيرهم ان اقتضى الأمر .

وكان شعاره ما اكده اصحابه مرارا : ((حرام على كل من صحبني ولا يرفع الي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول الي)) .. يصفه ابن الأثير بأنه ((كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان . القوي والضعيف عنده في الحق سواء . فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا امير . فلا جرم ان سار ذكره في شرق الأرض وغربها)) .

وكان يجلس في دار العدل مرتين في الاسبوع ، وقيل اربع مرات أو خمس، للنظر في امور الرعية وكشف ظلاماتهم . لايطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع إلى خزانته ، إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله .. وكان يحضر معه قاضي القضاة وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية .. ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين ابناء امته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير ((ينصف المظلوم ولو انه يهودي ، من الظالم ولو انه ولده

أو اكبر امير عنده)) . وكان قبل انشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في أحد مساجد دمشق ليصل إليه كل أحد من المسلمين واهل الذمة حتى نساؤهم . الأمر الذي يفسر لنا ما اورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب ، حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة الاف وفي الثانية ألفا وخمسمائة . أما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فلم يمسوا بأذى رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي ، وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ..

وما كان نور الدين ، هذا الحاكم العادل ، ليضع بينه وبين الرعية حدا أو جدارا ، فيستثني نفسه من حضور مجلس القضاة والاذعان لحكمه إذا ما ادين بتهمة أو ثبتت عليه .. وما اكثر ما يحكيه المؤرخون ويتناقلونه من روايات تبين لنا كيف كان الرجل يذعن للطلب ، ويذهب لحضور ساحة القضاء وتلقي كلمته كما يذهب أي مواطن عادي .

طلب مرة من قبل أحد المدعين ، فما كان من أحد كبار موظفيه إلا ان دخل عليه ضاحكا وقال مستهزئا : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فانكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف : ليحضر فرسي حتى نركب إليه ، السمع والطاعة .. قال الله تعالى (**انما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا**) .. ثم غادر المكان حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد اصحابه وقال له : امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له : اني جئت ها هنا امتثالا لأمر الشرع .

وفي دعوى أخرى رفعت ضد نور الدين نلتقي بالرجل يحضر إلى مجلس قاضي القضاة ويقول له : انني قد جئت محاكما فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر المدعي ساوى القاضي بينه وبين خصمه . واذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه ، وقد كنت اعلم انه لاحق له عندي ، إنما حضرت معه لئلا يظن انني ظلمته ، فحيثما ظهر ان الحق لي وهبته اياه .

((تلك هي غاية العدل والانصاف ، بل غاية الاحسان . وهي درجة وراء العدل)) كما يعلق المؤرخ ابن الأثير ..

وفي عام ٥٥٨ هـ ادعى رجل على نور الدين ان اباه (عماد الدين زنكي) اخذ من ماله شيئا بغير حق ، وانه يطالب بذلك . فقال نور الدين : انا لا اعلم شيئا عن ذلك، فان كانت لك بينة تشهد بذلك فهاتها وانا ارد لك ما يخصني ، فاني ما ورثت جميع ماله ، فقد كان هناك غيري .. فمضى الرجل ليحضر البينة .. وفي حادثة أخرى نلتقي بنور الدين وقد استدعى إلى مجلس الحكم فمضى مسرعا ، إلا انه وجد أثناء طريقة ما منعه من العبور ، فوكل عنه وكيلا واشهد عليه شاهدين وقفل راجعا ..

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظن والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد ((فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والاخذ بالظنة ، وامنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع)) .. ويحدثنا ابن الآثير كيف ان أحد اسباب اقالة أحد كبار موظفي الموصل من وظيفته عام ٥٦٦ هـ كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في اقامة السياسة ..

هذا على مستوى القضايا الخاصة ، وأما القضايا العامة التي تكون (الحكومة) فيها طرفا في الموضوع ، أو تتخذ اجراءا باسم الصالح العام قد يمّس بحقوق المواطنين ، فان نور الدين لم يكن اقل تحريا للحق والتزاما بالعدل . وثمة وثيقة قيمة يوردها لنا المؤرخ السوري أبو شامة بنصها ، عن إحدى المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والاملاك كانت قد ادخلت ضمن املاك الجامع الاموي بدمشق، وسعى نور الدين إلى فصلها واعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والامن . وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين في التزام الاسلوب الشورى الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق ..

وقد اعتمد نور الدين في اجهزته القضائية رجالا ثقاة عرف كيف ينتقيهم بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع

في عهده قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام ، واصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه ..

ان موقف نور الدين هذا ينبثق عن رؤيته العادلة لمفهوم (الادارة) ، إذ انها لم تكن في نظره يوما اداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة ، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من (البيروقراطيين) ، كما انها لم تكن مجرد ذريعة عملية (براغماتية) لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب .. ان هنالك اهدافا اكبر بكثير وقيما ومبادئ ابعد مدى ، كان على الاجهزة الادارية ان تسعى لتحقيقها في واقع الحياة ، وان تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالامة قدماً صوب آفاقها الرحبة الشاملة .

ان تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث (المجتمع المسلم)، كان هو الهدف المركزي لادارة نور الدين محمود ، فهي إذن إدارة ملتزمة، وليست جهاز منفعة وكسب واحتراف ..

وفي اكثر من مناسبة ، وعبر حشد من الاقوال والتأكيدات والمواقف، أشار نور الدين إلى هذه الحقيقة ، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها ، وسعى فعلا إلى ان تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان ألفكر إلى ميدان التطبيق ..

قال : ((نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والاذى الحاصل منهما قريب، افلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الاصل ؟)) وقال ((نحن خدام الشريعة نمضي اوامرها)) . وقال متحدثا إلى اثنين من كبار موظفيه ((والله اني لأفكر في والٍ وليته امور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من اصحابي واعواني، واخاف المطالبة بذلك أمام الله ، فبالله عليكما ، والا فخبزي عليكما حرام ، لا تريان قصة مظلوم أو تعلمان بمظلمة إلا واعلماني بها وارفعاها الي)) .. وقال فيما يلخص موقفه (الملتزم) بعبارة تثير الاعجاب ((اني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع)) ..

(٢٣)

في بداية اللقاء التالي تساءل أحد الطلاب : كيف كان موقف هذا الرجل الفذ من الفقراء ؟

أجاب الأستاذ : لقد كان نور الدين – بحق – صديق الفقراء .. كان يحبهم ويصادقهم ويزورهم في مساكنهم .. ويحترمهم .. ويمنحهم ويحميهم .. فكانوا – في المقابل – قاعدته الشعبية الحقيقية التي تحفظه وتقاتل من ورائه في ميادين السلم والحرب على السواء ..

ليس هذا فحسب بل انه كان – كما سبق وان عرضنا – يعيش تجربتهم ، بل يتجاوزها إلى مواقع اكثر مسغبة وشظفاً .. ونحن لا زلنا نذكر رواية ابن كثير ((كان نور الدين عفيف البطن والفرج ، مقتصدا في الانفاق على اهله وعياله في المطعم والملبس ، حتى قيل : انه كان ادنى الفقراء في زمانه اعلى نفقة منه ، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا)) .

يجمع المؤرخون على ان احدا من الأمراء لم يكن يجلس في مجلس نور الدين بلا اذن ، وانهم كانوا يقفون بين يديه .. ومع هذا فكان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات واجلسه معه على سجادته في وقار وسكون ، واقبل عليه بحديثه كانه اقرب الناس إليه .. فاذا اعطى احدا منهم شيئاً كثيراً يقول : هؤلاء جند الله ، وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما اعطيهم .. فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا ..

فهي ليست المنّة اذن من الحاكم على المحكوم ، وهو ليس عطاء التفضل من الذين يقدرون للذين لايقدرون .. ولكنه الحق .. وليس الحق كله ، انما هو جزء مما يستحقه الفقراء في المال العام ، فهو يعيده اليهم ، فإذا قنعوا ببعضه فلهم المنة عليه !! وإنها لالتفاتة نفسية ليست غريبة على ذكاء الرجل .. وتصور للمسألة الاجتماعية يذكر برسول الله وخلفائه الراشدين .

فليس بمستغرب اذن ان يغدو هؤلاء جيشه المعنوي المعبأ الذي يضرب بسهام لا تخطئ .. قال له اصحابه يوما – وقد رأوا ما تستنزفه مصارف الجهاد من أموال الدولة – : ان لك في البلاد صلات عظيمة للفقهاء والفقراء .. فلو استعنت بها الان لكان امثل . فأجابهم غاضباً : والله اني لا أرجو النصر إلا باؤلئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ، واصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا راني بسهام قد تخطئ وقد تصيب ؟ ثم ان هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم فكيف اعطيه لغيرهم ؟

ويبدو هذا التعاطف بين نور الدين وفقراء امته وكادحيها اكثر ما يبدو لدى هجماته المتكررة على دمشق قبل دخولها في طاعته ، فكثيراً ما كان يخرج إليه فقراؤها وضعفاؤها يلتمسون عطاءه فلم يكن يخيب احدا منهم .. وكثيرا ما كف أيدي اصحابه عن العبث والافساد في ضياع المنطقة وبساتينها خوفاً على كدح الفلاحين من ان يداس ويتفتت تحت اقدام المقاتلين ، وكثيرا ما اعلن انه انما جاء لحماية فلاحي المنطقة ((الذين أخذت اموالهم وشتتت نساؤهم واطفالهم بيد الافرنج..)) .. وكانت المكاتبات جارية بينه وبين اهالي دمشق الذين كانوا يرون فيه رجل العدل والديانة والاحسان ، وتم الاتفاق على ان ينقلبوا على زعامتهم الطاغية وان يفتحوا الطريق لنور الدين ، ويحدثنا ابن القلانسي كيف ان بعض قطاعي الخشب بادروا بفؤوسهم إلى الباب الشرقي فكسروه وتدفقت قوات نور الدين إلى دمشق ..

وفي مؤسساته القضائية كان نور الدين يأمر بازالة الحجاب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، فيكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ نظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوى في دفع الضعيف بالقال . ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها فيأمر بمساواتها به ، فتغلب خصمها طمعاً في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله ..

والقوائم الادارية في دولة نور الدين تشير إلى كثير من الاسماء التي لمعت في عصره ولم يكن أصحابها سوى خدم ومماليك وفقراء .. كان صاحب حصن عكا مملوكا ، وكان نائبه في قلعة الموصل خادماً ، وكان والي حران مملوكا هو الآخر، و تربع على دست الحكم في الرها خادم اسود ، وكان يتولى قلعة حلب في السنة التي توفّي فيها نور الدين خادم هندي معتوق .

إلا ان نور الدين لم يقف عند هذا الحد في تعامله مع ابناء امته ، بل سعى إلى تقديم أوسع الخدمات لهم ، والى جعل مؤسسات الدولة ادوات صالحة لتنفيذ هذه الخدمات ومدها إلى ابعد الآفاق ، فيما يعد – بحق – قمة اجراءات نور الدين الاجتماعية ..

لقد امتدت هذه الخدمات إلى كافة مساحات النشاط الاجتماعي ، وسعت إلى تغطية شتى الحاجات : ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل والمشرب ، وانتهاء بقضايا الروح ، مروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والانتاجية .. وقد أخذت هذه الخدمات اساليب واشكالاً مختلفة ، فهي حينا تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحينا عن طريق (الاعانة) على تلبية حاجة معينة ، وحينا ثالثاً عن طريق انشاء مؤسسات ومرافق : كالمارستانات والملاجئ ودور الايتام والمدارس و دور الحديث والخانات و الربط و الجسور والقناطر والقنوات والاسواق و الحمامات و الطرق العامة والمخافر و الخنادق و الاسوار ... وحينا رابعاً تجيئ عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وازدهارها ، وحينا خامساً عن طريق عدد من الاجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات المجتمع ...

قال أحد الطلاب : حبذا لو نعرف بعض نماذج هذه الخدمات بصيغها المختلفة ، لنرى إلى أي حد كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وانجاز ، وليست اداة قسر واستنزاف ، ولنختبر مدى صدق رواية المؤرخ أبي شامة من ان زمان نور الدين كان مصروفا إلى مصالح الناس والنظر في امور الرعية والشفقة عليهم ؟

أجاب الأستاذ : لقد بنى نور الدين المدارس ، وجدد الاسوار والخنادق ، وأمر ببناء الربط والخانات في الطرقات ، ووقف اوقافاً على المرضى ، وبنى المكاتب لليتامى، وأوقف على سكان الحرمين ، واقطع أمراء الحرب القطائع لئلا يتعرضوا للحجاج ، واقام الجسور والقناطر ، وجدد الكثير من القنوات . وعندما دخل دمشق عام ٥٤٩ هـ احسن إلى اهلها وبنى لهم المدارس و المساجد ووسع لهم الطرق و بنى عليها الرصافات ووسع الاسواق .. كما بنى فيها مستشفى عاما لا مثيل له .. وأوقف الاوقاف على من يعلم الايتام الخط والقراءة ، وعلى الارامل و المحتاجين ..

ويحدثنا الرحالة الاندلسي ابن جبير كيف انه شاهد في دمشق لدى زيارته اياها عام ٥٨٠ هـ نحو عشرين مدرسة ، كما انه شاهد البيمارستان (المستشفى) الكبير الذي انشأه نور الدين ، ويصف لنا باسهاب ما شاهده هناك : القومة و بأيديهم السجلات المحتويةعلى اسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها للادوية والاغطية وغير ذلك. والاطباء يبكرون إليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغطية حسبما يحتاج كل واحد منهم .. و للمجانين في المستشفى – كذلك – ضرب من العلاج .. ويقول المؤرخ ابن كثير بان هذا المستشفى ليس له في البلاد نظير ، ومن شرطه انه مقصور على الفقراء و المساكين . واذا انعدم وجود بعض الادوية إلا فيه فلا يمنع منها الاغنياء .. وقد زاره ابن الأثير كذلك وقال ان نور الدين قد اكثر من بناء البيمارستانات إلا ان اعظمها وأكثرها دخلا ذلك الذي بناه في دمشق . ويليه في الأهمية بيمارستان حلب الذي يصفه المؤرخ ابن واصل بانه كان هو الآخر في غاية الحسن . وتذكر إحدى الروايات ان نور الدين تقدم إلى اطبائه ان يختاروا من حلب اصح بقعة في هوائها لاقامة البيمارستان عليها ، فذبحوا خروفا وقطعوه اربعة اقسام ، وعلقوها بارباع المدينة ليلا ، فلما اصبحوا وجدوا احسنها رائحة الربع الذي يقع فيه باب انطاكية، فبنوا البيمارستان فيه، ووقف نور الدين عليه قرية و عددا من المزارع ..

ويحدثنا ابن جبير انه ما من خان ، عبرالطريق إلى دمشق ، إلا وفيه ماء جار ينسرب إلى صهريج وسط الخان ، وان الحمامات تنتشر في معظم قرى دمشق ، وان في دمشق وحدها وما يحيط بها من ارياف ما يقرب من مائة حمام واربعين داراً للوضوء يجرى الماء فيها جميعها ، ((فليس في البلاد كلها بلدة احسن منها للغريب لان المرافق بها كثيرة)) .. وثمة مشهد في اطراف دمشق يدعى (الربوة) حول إلى ما يشبه ألفندق المجاني ، واوقفت له الاوقاف الكثيرة ، فمنها ما خصص لاطعام البائتين فيه من الزوار واكسائهم وتدفئتهم ، ومنها ما خصص للمشرف وسائر العاملين والخدم كرواتب تدفع لهم في آخر كل شهر . وما من خدمة من الخدمات إلا وخصص لها قدر معلوم من المال .. وقد شهدت سائر المدن الأخرى – كذلك – نشاطا واسعا في بناء الحمامات العامة وحفر القنوات واقامة احواض الماء ..

(٢٤)

في اللقاء التالي واصل الأستاذ عرضه لانماط الخدمات الاجتماعية التي شهدتها دولة نور الدين محمود ، فذكر كيف ان العماد الاصفهاني روى ان نور الدين أمر باحصاء كافة المساجد التي هجرت أو خربت في دمشق ، فاناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفا .. وقد علق الاصفهاني على ذلك بقوله ((.. لو اشتغلت بأحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم ابلغ إلى امد . ومشاهدة ابنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان)).

وقد شهد عام ٥٥٢ هـ حملة خدمات اجتماعية واسعة النطاق كلفت مالية الدولة مقدارا ضخما بلغ مائتي ألف دينار ، كما قدر ريْع الوقوف التي رصدت تلك السنة بثلاثين ألف دينار . ويشير أبو شامة إلى بعض الجهات التي شملتها الخدمات والوقوف المذكورة : المدارس بائمتها ومدرسيها وفقهائها .. الربط .. الجسور .. الجوامع .. البيمارستانات .. الاسوار .. خدمات الحجاج .. فكاك الأسرى .. تعليم الايتام .. الضمان الاجتماعي للغرباء والفقراء .. هذا جميعه سوى ما انعم به على اهل الثغور من المقاتلين فانه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه .. ومعنى هذا – إذا صحت تخمينات المؤرخ المذكور – ان المبلغ الذي تطلبته تلك الحملة بلغ ما يقرب من نصف مليون دينار .

وفي عام ٥٦٩ هـ ، السنة التي توفي فيها نور الدين ، شهدت دولته حملة خدمات اجتماعية أخرى شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات .. ويجمع عدد من المؤرخين على ان تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للاعجاب وتوضح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جادا إلى تغطية حاجات امته بفئاتها الفقيرة المحتاجة ، ملبسا ونفقة وإشباعا : اكساء الايتام والنسوة الايامى .. تزويج الارامل .. ختان الاطفال .. اغناء الفقراء .. ويعلق العماد الاصفهاني على حملة تلك السنة بقوله: ((..حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الاشهر فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهبا . وكان إذا أمر بصدقة تقدم خازنه باحضار جماعة من ثقات البلد من أهل كل محلة ، فيقول لكل واحد : كم تعرف في جوارك من صاحب فاقة ومستحق ومقتر ومعيل وغيرهم ؟ فيقول:

اعرف كذا وكذا ، فيسلم إليه صدقات اولئك الاعداد ، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين ، ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرقه)) ..

وقد ضمن نور الدين مستقبل ابناء المقاتلين واحفادهم بذلك الاجراء الشهير الذي اتخذه .. فكان إذا توفي أحد اجناده وخلف ولداً اقر اقطاعه الذي هو مصدر رزقه عليه ، فان كان الولد كبيرا استقل بنفسه وان كان صغيراً رتب معه رجل عاقل يوثق به فيتولى أمره إلى ان يكبر . فكان الاجناد يقولون : هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها .

وتكون نتيجة هذا كله ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية .. ان المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب.. ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله .. المجتمع الذي يمحي فيه الاستغلال وتضيق ألفوارق ، ويشترك الجميع ، بالحق والعدل ، فيما يمكنهم من اشباع حاجاتهم الأساسية لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء ذلك .. الافاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقود الناس إليها ..

كلنا نذكر تجربة (الإخاء) التي أشركت المهاجرين والانصار في تحقيق هذا الإشباع، وكلنا نذكر كيف ان هذه التجربة مكنت المجتمع الإسلامي الأول من التحرك بقدرة وحيوية صوب أهدافه الأوسع والأبعد .. على هدى كلمات الله وخطوات رسوله العظيم ..

ونحن نلتقي بالمجتمع نفسه يبعث من جديد في عصر نور الدين محمود بعد إذ تحقق التقابل الفعال بين القيادة والقواعد .. واليكم (صورة) من بين عشرات الصور التي وصف بها هذا المجتمع ، يحدثنا عنها شاهد عيان فيقول ((ان الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق خرج الجم الغفير من الناس ، رجالا ونساء لتلقيهم .. يصافحونهم .. واخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، واخرجوا إليهم الأطعمة .. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم — ان احب — ضيعة

من الضياع فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الأمامة أو التعليم أو ما شاء . ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى ..)) .

توقف الأستاذ هنيهة وأجال بصره في وجوه طلبته الذين كانوا ينصتون بشغف إلى حديثه ، وقال : هل ثمة سؤال حول الموضوع ؟

رفع اكثر من طالب يده .. فأشار إلى أحدهم ، فقال هذا : ان نور الدين محمود انفق – كما رأينا – مقادير كبيرة من المال في تغطيته الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة ، واسقط – في الوقت نفسه – مبالغ نقدية اكبر منها حجما كانت تنصب في خزائن الدولة ضرائب ورسوما ومكوسا .. فمن أين كانت حكومة نور الدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز ؟ وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير باسقاط الضرائب ، والمكوس ، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات دون ان يصيبها الخلل فتتوقف – على الاقل – عن العطاء ، ان لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد ألفتق ، واستعادة الموازنة المالية والقدرة على العمل ؟

أجاب الأستاذ : هنالك (إجابة) تجيء بمثابة بديهية من البديهيات التي لا تحتاج – أساسا – إلى قول : ان دولة نور الدين ، لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال ، وبشكل دائم ، لما واصلت سياساتها تلك حتى آخر لحظة ، ولما وصفها كبير موظفيها المؤرخ العماد الأصفهاني بانها ((كانت نافذة الأوامر منتظمة الأمور)) .. ولكن السؤال يظل معلقاً : كيف كانت خزائن الدولة تحظى دوما بالقدر الكافي من المال ؟ انني أريد منكم انتم ان تجيبوا على السؤال ..

قال طالب آخر : ان مراجعة سريعة للجانب الآخر من سياسة نور الدين المالية تمنحنا الجواب المقنع .. فهنالك – أولا – الضرائب الشرعية ، وهي الضرائب الأساسية الأكبر حجما والأكثر عطاءا ودواما وإلزاما لدى أبناء الأمة ومسئوليها على السواء : خراج الأرض وجزية الرؤوس وزكاة الأموال .. ان نور الدين لم يتهاون مطلقا في أي من هذه الضرائب لانها تشمل (حقاً) يكاد يكون مقدسا ، وليس بمقدور حاكم أو

محكوم تجاوزه على الإطلاق .. ونور الدين محمود يحكم أرضاً اشتهرت – ولا تزال – بكثافة نشاطها الزراعي ، و يسوس مجتمعا بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل ان ترغمهم الدولة على الدفع .. ولنا ان نتصور – من ثم – كيف ستشكل هذه الموارد الثلاثة ضمانا دائماً لموازنة مالية الدولة ، وحماية خزائنها من العجز والإفلاس ..

قال طالب ثالث معقبا على تحليل زميله : في مقابل هذا عمد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية ، في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد .. فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين و الفلاحين من كافة صنوف الأذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن ان تلحق كدهم من جرّاء حالة الحرب المستمرة ، وتحرك الجيوش الدائم ، وتحول الأرض الجزرية والشامية والفلسطينية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً ..

وقد مر بنا كيف ان نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق ، طيلة الاربعينات ، كان يشدد على اصحابه وجنده الا يفسدوا المزارع والضياع والقرى ، والا يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق .. وكيف أنه أعلن نفسه حاميا للفلاحين ، فيما رواه لنا المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي في اكثر من مكان .

واصل الطالب تحليله قائلا : ونور الدين – من جهة أخرى – سعى – كما رأينا – إلى تخفيف الضرائب عن الفلاحين ، واسقط حشدا كبيرا مما كان يفرض عليهم ويثقل كاهلهم ، ويضطرهم – احيانا – إلى التخلي عن نشاطهم الزراعي الذي ما كان يغود عليهم إلا بمزيد من الفقر والشقاء .. والان ، وقد خففت عنهم الرسوم والضرائب إلى الحد الذي رأينا ، فان حافزا قويا سيدفعهم إلى مزيد من العمل والانتاج، وهم مطمئنون إلى ان حصيلة كدحهم لن ترجع في نهاية الأمر إلا إليهم ...

قاطعه الأستاذ وهو ينظر إلى ساعته قائلاً : هون عليك .. ان الحقائق التي تسردها مقنعة حقاً ونحن لا نريد ان تختزلها اختزالاً .. وستكون الدقائق الأولى من اللقاء القادم محجوزة سلفا لك .. والان إلى النادي سوية لنريح انفسنا ونشرب شيئاً فان لأبداننا علينا حقاً .

(٢٥)

ما ان اجتمع شمل الطلبة مع استاذهم حتى استأذنه أحدهم باضافة حقيقة أخرى في الاجابة عن السؤال الذي اثير في اللقاء السابق حول الموازنة المالية ، لكن الأستاذ بادره بالقول بان الدقائق الأولى سبق وان حجزت لزميله لاستكمال تحليله الذي بدأه في ذلك اللقاء .. اليس كذلك ؟

أجاب الطالب مبتسما : ولن اتنازل عن حقي أبدا ..

قال الأستاذ : فأرنا معلوماتك اذن.

واصل الطالب حديثه قائلاً : لقد رافق إجراءات نور الدين انفة الذكر وقف لكافة الاساليب الجائرة في جباية الضرائب ، واعتماد اساليب جديدة اكثر تحرياً للعدل وانصافا للفلاحين في دولة كانت ترى في الظلم جريمة كبرى ينزل بمرتكبها اشد العقاب .. وفضلا عن هذا وذاك فان الخدمات التي تكفلّت دولة نور الدين بتقديمها للمواطنين انصبت في مساحات واسعة منها على اعانة المزارع لتقديم أقصى ما يستطيع من جهد في استثمار ارضه .. فقد شقت الترع وبنيت القناطر والجسور، وعبدت الطرق ، واقيمت الخانات عبر مسافاتها الطويلة .. مما لعب دوره في تنشيط الانتاج الزراعي ، حتى ان ابن العديم ، المؤرخ الحلبي ، يقول ((انعمر بلد حلب في زمان نور الدين ، لعدله وحسن سيرته ، حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل ، وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن اكثر من المدينة ..)).. وقد أدى تنشيط الانتاج الزراعي بهذه السياسات الحصيفة إلى تنمية الحصيلة الخراجية المترتبة عليه ..

صمت الطالب قليلاً واشار إلى الأستاذ كانما يستأذنه في منحه وقتا اضافيا لاستكمال وجهات نظره .. فأجابه الأستاذ بان معطياته مقنعة حقاً وانه وطلبته على استعداد لسماع المزيد..

وما لبث الطالب ان استانف حديثه قائلاً : هنالك – ايضاً – الغنائم التي كانت تمثل – بحق – مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوما في (حالة حرب) مع الأعداء ، وكانت نتائج الحرب المعنوية والمادية تأتي لصالحها في اغلب الاحيان . يقول المؤرخ سبط بن الجوزي – على سبيل المثال – ((عاد نور الدين بعد فتح حارم عام ٥٥٩ هـ إلى حلب بالاسرى والغنائم ، وامتلاءت حلب منهم ، وفرقهم نور الدين على العساكر .. ثم فاداهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم : يقتل الجميع ، وقال آخرون : يفادى بهم ، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلاً ، وخيلا وسلاحاً وغير ذلك . فكان نور الدين يحلف بالله ان جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها ، من هذه المفاداة ، و جميع ما اوقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهم واحد)) ..

ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة .. فكيف بسائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من اقصاها إلى اقصاها ؟ .. ثمة رواية أخرى فيها اشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة من طريق المفاداة : وقع صاحب طرابلس اسيرا بيد نور الدين فاطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين حصانا وآلفين من الدروع والزرود ، ومقادير كبيرة من الأسلحة ، وخمسمائة اسير من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي ، أما أبو شامة فانه يطرح ارقاما أخرى : مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف اسير من المسلمين .. وايا كان الأمر فان المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأسير الصليبي كانت كبيرة حقاً . فإذا ما اضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الاقاليم الكبيرة التي فتحها كمصر واليمن وغيرهما على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية ، ادركنا كم كان واسعا كبيرا هذا المورد الذي كان يجيئ عن طريق النشاط الحربي ..

تساءل الأستاذ ، بعد ان اثنى على طريقة الطالب في طرح معلوماته : هل ثمة موارد أخرى كانت تساعد على تحقيق التوازن المالي في دولة نور الدين محمود ؟

رفع اكثر من طالب يده وقال أحدهم : نعم .. فهناك الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين زنكي والتي آلت خزائنها إلى نور الدين لحسن الحظ ، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في سنجار على الطريق بين الموصل وحلب ، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام ٥٤٤ هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب ، وكانت كما يصفها كل من ابن الأثير وابن العديم ((كثيرة جدا)) ، وانها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال ، وكان من بين الاخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب .

وقال طالب آخر : ولا ننسى تلك الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين محمود تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى الزام موظفيه بها ، وفرض عليهم رقابته الدائمة اليقظة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص .. وان لنا ان نقدر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم ، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين يوم ذاك ، وفي كل زمان و مكان .. وان لنا ان نقدر - بالمقابل – ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وايمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم .. اننا نتذكر هنا عبارة المستشرق الالماني الشهير (يوليوس فلهاوزن) وهو يتحدث عن سياسة الخليفة الاموي الراشد عمر بن عبد العزيز المالية حيث يقول ((لقد عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لانفسهم ، والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين ..)) .. وما قيل عن عمر بن عبد العزيز يمكن ان يقال عن نور الدين محمود .

وقال طالب ثالث : هناك أيضا ايقاف نور الدين للنزاع الداخلي والحروب الاهلية ، وتكوين دولة موحدة يسودها الاستقرار ، رغم حالة الحرب الدائمة بينها وبين العدو الصليبي ، الأمر الذي وفر على الدولة مبالغ كبيرة كانت ستضيع في غمرة الصراع الداخلي ذاك ..

واختتم الأستاذ وجهات نظر طلبته بقوله : ثمة – آخيرا – تلك الارضية الصالحة التي اوجدها نور الدين ، والمناخ الملائم الذي سهر على حمايته ، بجعله الدولة مؤسسة لتقديم أوسع الخدمات لابناء الأمة ، وايجاد مجتمع التضامن والتكافل حيث كان المواطن يجد ، أيا كان انتماؤه الديني واصله الاجتماعي ، ضمان حياته ومستقبله في ظلال دولة تحميه وتخدمه ، ومجتمع يعينه ويكفله .. وتجيئ نتيجة ذلك كله مزيدا من الجهد والعمل والانجاز ، فمزيدا من النماء للدخل القومي ولموارد الدولة على السواء..

ومن ثم نعرف – بعد هذا كله – لماذا ((انعمر)) بلد حلب في زمان نور الدين كما يقول ابن العديم ، ولماذا ((لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا فيها سكان ولها مغل)) ولماذا ((صار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن اكثر من المدينة)) ، ولماذا أخذت تعاني من ((كثرة العالم)) مما دفع إلى ارتفاع الاسعار فيها رغم كثرة وارداتها .. ونعرف – كذلك – لماذا وصف الرحالة الاندلسي (بنيامين التطليلي) دمشقا بانها ((البلد العأمرة)) وانها ((مدينة واسعة الارجاء ، جميلة المنظر ، تمتد رياضها وبساتينها إلى ما مسافته خمسة عشر ميلا من كل جانب)) ، وانه ((لم يجد مثل فاكهتها واشجالرها في أي مكان آخر في العالم)).

كما اننا نعرف لماذا اصبح البناء في دمشق – لأوّل مرة – من ثلاث طبقات، كما شاهد الرحالة ابن جبير ، واصبح ((يحتوى من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه اكثر بلاد الدنيا خلقاً)) .. ولماذا غدت ((اسواق دمشق من احفل اسواق البلاد واحسنها انتظاما وابدعها وضعاً)) .

صمت الأستاذ قليلاً ريثما يبل ريقة بشيئ من الماء ثم استانف حديثه قائلاً : ها نحن الان قد وضعنا ايدينا على الخطوط العريضة للانجازات التي شهدها المجتمع الإسلامي في ظلال قيادة نور الدين محمود .. واظن ان هذا يكفي .. اللهم إلا إذا كان هنالك سؤال يدور في الاذهان حول مسألة أو جانب لم يتعرض للضوء .. فهل ثمة ما يحتاج إلى ذلك ؟

واذ اعرب الطلبة جميعا عن اكتفائهم بما طرح عن المسألة الاجتماعية .. قال الأستاذ : سيكون حديثنا عبر اللقاءات المتبقية – اذن – عن مسألة أخرى لا تقل أهمية في تكوين المجتمعات الحيوية التي تتمتع بقدر كبير من الفاعلية وقدرة فذة على مجابهة التحديات ، تلك هي المسألة الثقافية .. وسأبدأ في اللقاء القادم – ان شاء الله – بطرح بعض المسائل الأساسية عن الموضوع لكي ما نلبث ان نناقش جوانبه المختلفة ، مركزين هنا أيضا على خطوطه العريضة انسجاما مع الوقت المتبقي .. فالى اللقاء ..

(٢٦)

بدأ الأستاذ حديثه عن المسألة الثقافية بتأكيده على ان دولة نور الدين شهدت – بحق – نشاطا ثقافياً واسع النطاق حيث بنيت المدارس ومؤسسات التعليم في كل مكان ، وتدفق العلماء والشعراء على بلاد الشام من المشرق والمغرب ، ومنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم والطلبة الدارسين ، وعقدت المجالس والندوات لمناقشة شتى المسائل والقضايا المتعلقة بفروع العلم والبحث المختلفة .. وقرب العلماء ، واستقدموا من أقطار المشرق والمغرب ، وفتحت أمامهم السبل ، فغدوا الطبقة الأولى واحتلوا اعلى مصاف ..

ان نور الدين يعرف جيدا طبيعة العصر الذي قدر له ان يتولى إحدى قياداته الخطيرة ، ويقف على ثغر من ثغوره المتقدمة بمواجهة خصم مذهبي كان قد تغلغل في الأرض التي يقف عليها نور الدين ، وضرب جذوره هناك فيما يزيد على نصف القرن .. انه يعرف ان تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكريا فحسب .. بل انه أوسع من ذلك بكثير .. انه مواجهة مذهبية بين دين ودين ، وصراع حضاري بين امة وامة ، وانه بدون تأصيل الذات العقائدية للامة المسلمة ، فان الانتصار على الخصم لن يكون سوى اعمالا جزئية موقوتة معرضة دوما للمد والجزر وللتغير والتبدل ، كما كان يحدث دائماً .. وما يقتضيه الموقف ليس هذا .. ليس مجرد انتصار خارجي في معركة ، أو استرداد حصن .. وانما بناء امة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتهاالحضارية من ان تتفتت وتضيع .. وحينئذاك سوف يتحول كل نصر عسكري أو كسب سياسي إلى انجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة واصالة وتماسكا ، لا مجرد تكديس شيئي لا يشده رباط .. تكديس كمي ، يصمد للضربة والضربتين ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار ، فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال ، وعرقها ودمائها ..

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبدا ترفاً ، ولا افرازا تقليديا لاجهزة الدولة .. لكنه (تصميم) هادف يسعى إلى تحقيق عملية (التأصيل العقائدية) من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به ألفكر بالسلوك ، والعلم بالعمل، و تزول حواجز الفصل والازدواج ، وتتمحي الثنائيات ، ويبرز إلى حيز التاريخ (الانسان) المتوازن الذي اراده الإسلام .. و(الجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .. ان مفهوم التربية في الإسلام مفهوم متكامل، يسعى إلى تنمية واغناء كافة مقومات الشخصية : فكرية وروحية وجسدية ، ومحاولة استجاشتها ودفعها إلى حدود التوتر الاقصى القدير على تقديم اكبر قدر من العطاء ، مع الحفاظ الدائم على حالة التوازن الصعب بين التيارات الثلاثة في تكوين الشخصية.

واننا نلمح في تجربة نور الدين الذاتية وسياساته التربوية وتعاليمه ، سعيا مؤكدا من اجل تحقيق هذا الهدف : تكوين (المسلم) المتوازن الذي تنمو فيه إلى حد التوتر الفعال ، وعلى خط متوازن ، قدراته الثلاث : الروحية والعقلية والجسدية ، والذي كان كتاب الله وسنة رسوله قد سعيا من اجل اعداده بطرائقهما (المؤثرة) (المتكاملة) . ليكون حجر الزاوية المتين في بعث المجتمع المسلم الذي أنيطت به الأمانة الكبرى ، وحمل مسؤولية تغيير خرائط العالم ، و(الشهادة) على مسيره ومصيره على السواء ..

لقد حمل نور الدين في عقله وضميره ومؤسساته ، هذه الرؤية الإنسانية الذكية للهدف التربوي ، وسعى من خلال تعاليمه واوامره ، والقدوة (النموذج) التي صاغها بنفسه ، إلى مدها إلى مواطنيه كافة .. ومارس جهدا شاقا من اجل ان يتحقق بالتوازن والفاعلية ، فبلغ بالتعبد الدائم والتقوى العميقة قمة التجربة الروحية ، وغدا – إذا صح التعبير ولا اعتقد انه يصح – علما من اعلام التصوف (الملتزم) في عصره .. وبلغ بالرياضة الجادة والممارسات الفروسية المستمرة قمة التمكن (الجسدي) في عصر لم يكن يسمح بالحياة إلا للفارس الذي يعرف كيف يركب فرسه قبل ان يرتد الطرف إلى العين ، وكيف يناور خصمه ، وكيف ينطلق إلى هدفه كما ينطلق ضوء الشهب

في الليالي المظلمة .. وكما شهدناه في ساحات التعبد .. والتقوى .. يتحرق شوقاً حتى يكاد يذوب ، ويغسل بدموع العين ما قد يعلق بالفؤاد من رين .. نراه هنا : فارسا يمتطي جواده فلا يكاد أحد يحس ان هنالك فاصلاً بينه وبين الجواد .. اكثر من هذا ، ان ابن الأثير يشير إلى ان الناظر إليه يتوهم ان الرجل وجواده قد قدا من عجينة واحدة ، وكانه قد خلق على ظهر الجواد .. رياضيا يلعب الكرة حيثما اتيح له ذلك .. ويتجاوز تحديات الظلام فيوقد الشموع لكي يواصل لعبته المفضلة ، حتى إذا ما اعترض عليه أحد الشيوخ في ان ممارسته هذه قد تبعده عن ساحات الجد .. اجابه على ضوء الرؤية الإسلامية للمسألة : بان الرياضة تزيد من قدرات المقاتل ، وتمنحه المزيد من مهارات الفروسية في عصر الصراع الدائم والقتال المحتوم .. مقاتلا يتقدم جنده في المعارك ويتوغل في صفوف الخصم ببطولة فذة كانت ترفعه دوما إلى مستوى الفدائية وتتجاوزها صوب طلب الموت .

هذا عن تربية الروح بالعبادة ، والجسد بالرياضة ، وان كنا – كما علمنا الإسلام بتجربته الفذة – لا نرى ثمة فاصلاً بين هذه الممارسات جميعاً في صميم الشخصية البشرية ، وان ما يحدث هو العكس تماما : تأثير وتأثر دائمان بين مكونات الانسان وبين أي من هذه الممارسات . وليس التعبد – على سبيل المثال – بفاعلية روحية فحسب ولكنه تعامل شمولي متكامل مع العقل بجعله اكثر صفاءاً ونفاذاً ، ومع الجسد بجعله اكثر ضبطاً وتوافقاً .. وما يقال عن (التعبد) يمكن ان يقال عن (التفكر) و (التريّض) سواء بسواء ..

هذا عن تربية الروح بالعبادة .. والجسد بالرياضة .. فماذا عن تربية العقل بالتفقه والتفكير ؟ وهل اقتصر نشاط نور الدين في هذه الدائرة على حدود تجربته الذاتية ، ام سعى إلى مده – كما هو الحال في الدوائر الأخرى – إلى كافة المواطنين ؟

صمت الأستاذ قليلاً ريثما يرتاح ثم واصل حديثه : لقد كان نور الدين نفسه عالما قبل ان يكون حاكما .. وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية .. ان امة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن ان تونع فيها وتزهو شجرة المعرفة .. ويوم نرى هذه الشجرة تذوى وتذبل وتنفض عنها اوراقها الصفراء فلنا ان نحكم بان هنالك في القمة حفنة من الجهلاء .

كان نور الدين عارفا بمذهب أبي حنيفة ملتزما به عن غير تعصب منه ولا تحيز .. فالمذاهب عنده – كما اجمع المؤرخون – كلها سواء .. سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له ان يسمعه للآخرين .. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة مهام عمله السياسي والعسكري ، محاولة منه في تعزيز مكانة السنة ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث ، الأمر الذي يذكرنا بجهود الخليفة الأموي الراشد : عمر بن عبد العزيز في هذا الميدان الخطير .. كما انه ألف كتابا في الجهاد ، ووقف كتبا كثيرة في مدارسه ، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية ، متميزا بعقله المتين ورأيه الثاقب .

وكان الرجل ، لتعشقه العلم ، يسعى ، وهو في قمة السلطة ، إلى التشبه بالعلماء الصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم ، والاتباع لهم في حسن حالهم .. وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحل العظيم ، يحضرهم إلى مجلسه فيدنيهم ويتواضع لهم ، وإذا اقبل أحدهم إليه يقوم له ويعتنقه ويجلسه معه ، ويقبل عليه بحديثه كانه اقرب الناس إليه ، تعظيماً وتوقيرا واحتراما ..

وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر ، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت ، وتخريجا نظريا للفروع على الاصول ، وترفا فكريا .. انما كانت نشاطا جادا من اجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة ، المتغيرة ، بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير ... ما دام الرجل يسعى إلى اعادة صياغة الحياة ، في كافة ميادينها وعلى مدى مساحاتها ، بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤيته لموقع الانسان في العالم .. ومن ثم فان ندوات كهذه

هي اشبه بمجالس أو لجان (برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحل مشكلة ما ، أو استصدار تشريع أو اقرار قانون .. وكثيرة هي تلك الاجتماعات الموسعة التي عقدها نور الدين مع حشود العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا كافة المذاهب الفقهية ، من اجل النظر في عدد من القضايا والمصالح العامة ..

(٢٧)

واصل الأستاذ – في اللقاء التالي – حديثه عن موقف نور الدين من العلم والعلماء، واشار إلى رواية المؤرخ ابن الأثير التي يتحدث فيها عن قيامه باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في اخذ ما يحل له من الغنائم ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين .. وكيف انه ((اخذ ما افتوه بحله ولم يتعده إلى غيره البتة)) .. ثم علق على الرواية قائلاً : إن ما يصدر عن ممثلي الشريعة الغرّاء يتوجب ان يكون ملزما لكل انسان سواء كان في القمة أو في القاعدة .. وقولهم هو القول الفصل ، لان نور الدين، وقد عرفنا مدى صدقه مع ربه ومع نفسه ومع جماهير امته ، ما كان يريد ان يمارس لعبة الاستشارات القانونية المزدوجة : يبرز للناس على انه لا يقدم على عمل إلا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع اطروحات اللجان التشريعية والبرلمانية .. التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحوى في داخله ممارسات ومضامين لا تمت إلى لون الرداء ونسيجه بشيئ .

لقد بلغ العلماء والمشرعون في دولة نور الدين حدا جعل الأمراء ، الذين انزلوا عن القمة ليحل هؤلاء محلهم ، يحسدونهم على مكانتهم . ((بلغني – يقول ابن الأثير – ان بعض الاكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري ، الفقيه الشافعي – وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه – فنال ذلك الأمير منه يوما عند نور الدين فأجابه : يا هذا ، ان صح ما تقوله فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين ، وأما أنت واصحابك ففيكم اضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك . وانا احتمل سيآتكم مع عدم حسناتكم ، افلا احتمل سيئة هذا – ان صحت – مع وجود حسنته ؟ على أني والله لا اصدقك فيما تقول ، وان عدت ذكرته آو غيره بسوء لأوذينك .. فكف عنه)) .

ولم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة – كما يقولون – حيث يختلط الفقيه بالجاهل ، تحت ستار العلم ، ويضيع الجيّد بالردئ . وحيث يبرز – احيانا – من بين العلماء ، رجل أو اثنان أو اكثر ، فيمتطون المكانة التي بلغوها ، ويختبأون خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيفوا الحقيقة ، أو يلبسوا باطلا بحق ، أو يشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً .. ان الرجل يرفض الكذب .. الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة ، وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع ، وهو – من جهة أخرى – يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة كدقة الموازين ، فهو كما قال ابن الخطاب رضي الله عنه متحدثا عن نفسه ((لست بالخب ولا الخب يخدعني)) .. ومن ثم يبدو ان ليس بمقدور أي رجل ان يعبر على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال ، حتى ولو تدثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ألف ستار ...

في الجهة الأخرى ، لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الادبي ، والعلاقة الودية والكلمة الطيبة .. ولكنه تجاوز هذا – على اهميته – إلى البذل والعطاء .. فكان يمنحهم بسخاء ، مقدرا ان هذه الفئة الممتازة يجب ان تظل فوق، والا تلجئها الضرورات القاسية إلى ان تنزل درجات إلى اسفل فتحني رأسها ، وتلوى فكرها ، أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلبا للاجر وسدا للحاجة . ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال ، وطيبة حلوة الثمار التي تنضجها شجرتهم الخضراء ..

ان امة تريد من علمائها ان يعطوها نتاج قرائحهم صافياً خالصا نقيا ، عليها الا تبخل عليهم بما يسد حاجاتهم الضرورية ويفيض عليها ، لكي لا تشدهم إلى اسفل ، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق ، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة ، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم ، هناك حيث وازن الرسول عليه السلام مدادهم بدم الشهداء ، وحيث قدرهم الله حق قدرهم عندما أشار إلى خشيتهم – بالعلم – اياه سبحانه (انما يخشى الله من عباده العلماء ..) .

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ، ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء ، ومكن العلماء ، بما خصصه لهم من أعطيات ، من ان (يتفرغوا) لمهامهم العلمية ، وسار في هذا الميدان على الطريق الذي كان سلفه عمر بن عبد العزيز قد قطع فيه خطوات مديدة .

بنى في كثير من بلاده مكاتب للايتام لتعليمهم الخط والقراءة ، واجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، و اعتمد المساجد الكبيرة لتوسيع نطاق التدريس ، وبذل من أجل ذلك اموالا كثيرة .. ويحدثنا الرحالة الاندلسي ابن جبير ، الذي زار دمشق بعد سنوات قلائل من وفاة نور الدين ، عن جوانب عديدة من نشاطات الدولة في سبيل توسيع خدماتها في حقل التعليم ، ولا ريب ان مشاهداته هذه تنسحب على عصر نور الدين واضع الاسس الأولى للسياسة العلمية التي اعتمدها خلفه الناصر صلاح الدين .. ففي الجامع الأموي شاهد ابن جبير حلقات عديدة لتدريس الطلبة ، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم اعطيات ومخصصات كبيرة . وقد خصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم .. وثمة وقف كبير للايتام من الصبيان يتسلم منه معلمهم ما يسد حاجته وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم .. وما ان يتم بناء مدرسة أو مسجد أو رباط حتى تعين لها اوقاف تقوم بها وبساكنيها والمقيمين فيها . وفي المدرسة الحلاوية بحلب ، التي يصفها المؤرخ ابن شداد بانها ((من اعظم المدارس صيتا وأكثرها طلبة وأزودها مخصصات)) كان يحمل في كل رمضان ثلاثة الاف درهم لكبير المدرسين يصنع بها للفقراء طعاما ، وكان المدرسون يتسلمون مخصصات تمكنهم من شراء الملابس والدواء وألفاكهة ، هذا فضلاً عما كان يقدم إليهم في المناسبات من الطعام والنقود .

وتأست المرآة بالرجل فراحت تنفق هي الأخرى الأموال الواسعة في بناء المساجد والمدارس وتعين لها من مالها الاوقاف .. بينما راح الأمراء يتسابقون في هذا الطريق كل يبني ويعمر ويقف الاوقاف . وليس ثمة غرابة في هذا إذا كانت اوقاف نور الدين الشخصية وحده تدر في الشهر الواحد ما يقارب العشرة آلاف دينار .. ليس فيها ملك

غير صحيح شرعا . أما ما أوقفه من أموال الدولة في المنشور الذي اصدره عام ٥٥٢ هـ فحسب فقد قدر ثمنه بمائتي ألف دينار ، وقدر ريعه السنوي بثلاثين ألف دينار كان قد خصص قسم كبير منه على مدارس المذاهب الأربع وائمتها ومدرسيها وفقهائها ، وعلى تعليم الطلاب وسكنى الغرباء من طلبة العلم .

ويختتم ابن جبير حديثه عن هذا الجانب المهم في دمشق فيقول ((ومرافق الغرباء بهذه البلدة اكثر من ان يأخذها الإحصاء ، لاسيما لحفاظ كتاب الله والمنتمين لطلب العلم ، فالشان بهذه البلدة لهم عجيب جداً)) ثم ما يلبث ان يخاطب أبناء المغرب قائلاً ((فمن شاء الفلاح منكم فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة . فاولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمها ..)) ..

من اجل ذلك كله شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطا لم تشهد له مثيلاً من قبل إلاّ لماما ، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من اطراف الأرض .. حتى ان بلاد الشام كانت – كما يصفها أبو شامة – خالية من العلم واهله ، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء . وكانت وجهة (الهجرة العلمية) أو (هجرة الادمغة) ، كما تسمى في العصر الحاضر ، لصالح دولة نور الدين ، حيث غدت حلب أولا ، ودمشق فيما بعد ، هدف الشيوخ والعلماء والدارسين .. فالدولة التي تهيئ الارضية الاكثر صلاحية للعطاء العلمي ، وتمنح المال الاكثر للبحث والدراسة و التفرغ ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين ، هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان ..ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة ويستقدمهم إليه ، ويبالغ في اكرامهم والاحسان إليهم .

صمت الأستاذ قليلاً ريثما يستخرج بعض الاوراق من حقيبته ثم اردف قائلاً : ان أمامي في هذه الاوراق اسماء حشود كبيرة من العلماء والفقهاء والادباء والاطباء والمهندسين لا يتسع المجال لمجرد المرور عليها واستعراض معطياتها .. وهي حشود ان دلت على شيء فانما تدل على ان نور الدين لم يجنح ، في تبنيه للحركة الثقافية ،

باتجاه العلوم الشرعية وحدها ، وحتى الإنسانية بفروعها المختلفة ، بل حاول أن يوجد الأرضية الصالحة لنمو كافة النشاطات العلمية بشقيها الانساني والعلمي ، النظري والتطبيقي على السواء .. وكان يصدر في موقفه هذا عن رؤيته الإسلامية التي ترى العلم بأبعاده المختلفة وسيلة لخدمة الحياة وترقيتها ، واداة للكشف عن سنن الكون والعالم وصولا إلى ايمان اعمق بخالق السنن والنواميس.

(٢٨)

قال الأستاذ مواصلا حديثه عن الحركة الثقافية في دولة نور الدين محمود : من خلال (المدرسة) كمؤسسة تعليمية انطلق نور الدين في تحقيق برامجه الواسعة ومطامحه التي لم يوقفها إلا الموت .. لقد اراد ان تنتشر المدارس في كل مكان من انحاء دولته الشاسعة .. انها المراكز التي تنقل حشود الناس من ظلام الامية والجهل إلى نور المعرفة واليقين ، وان الرجل ليعرف جيدا انه بالجهل والامية لن تتحقق امته بالايمان، ولن تتمكن من تحقيق ما اسميناه بتأصيل الذات العقائدية بمواجهة الغزو الصليبي المتشعب المدمر ، وعمليات التحريف في الداخل .. والعلماء الذين استقدمهم أو جاءوه من كل مكان ما كان لهم ان يعملوا ارتجالا أو ينشطوا في الفراغ .. ونحن نعرف مدى الروح التنظيمية التي يملكها رجل كنور الدين .. فلا بد من وجود قدر كاف من المؤسسات التعليمية للإفادة من كفاءة هؤلاء الرجال ، ولنشر نور العلم والمعرفة وفق نظام وبرنامج مرسوم .. وهكذا نستطيع ان نعثر على مفتاح ذلك النشاط المدرسي الذي تبناه السلاجقة من قبل ، واعقبهم نور الدين وكل الذين ساروا على خطاه ، وبخاصة خلفه الناصر صلاح الدين ، فأصبح هذا النشاط (سمة) من ابرز سمات العصر : عصر المقاومة والجهاد الذي أريد له ان يكون حركة مسلّحة مبطنة بقوة الكلمة ونور البرهان ..

ومن ثم نجد الرجل ينشط ، منذ لحظة تسلمه الحكم وحتى وفاته ، لاقامة اكبر قدر ممكن من معاهد العلم ، وانفاق المبالغ الطائلة في هذه السبيل ، ووقف الوقوف السخية لضمان استمرار هذه المؤسسات على أداء مهمتها .. وشهدت مدن دولته وحواضرها ، وبخاصة حلب ودمشق ، جهدا مستمرا لبناء المدارس ابتداء ، أو توسيع وإصلاح ماكان قد بني قبلا .. ولم يقف الرجل وحده في هذا المضمار بل وقف من ورائه جل رجالات دولته وكثير من نسائها ايضاً .. واصبح تقليدا شائعا ان يسعى هذا الرجل أو تلك المرأة إلى التقرب إلى الله وتخليد الذكرى بهذه المأثرة : بناء مدرسة كان يعد ولا ريب عملا من اخلص اعمال الايمان .

ولن يتسع المجال – هنا أيضا – لاستعراض حشود المدارس والمؤسسات التعليمية التي تم بناؤها أو توسيعها في عصر نور الدين ، و لا لطرائق إنجازها ونظم العمل فيها ..

ويكفي ان نرجع إلى مؤلفات المؤرخين الذين تناولوا هذه المسألة وإلى شهادات الرحالة والجغرافيين ، لكي ندرك حجم الحركة المدرسية التي شهدتها دولة نور الدين .

ولم يكن الرجل ، كما رأينا في بدء الحديث عن الموضوع ، متحيزا أو متعصبا إلى مذهب من المذاهب ، لكي يسعى – من خلال نشاطه المدرسي هذا – ، إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب ، والى تعزيز (مواقع) فقه ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية ، كما يحدث في عصور التقليد والتيبس الفكري .. انه يطمح إلى ما هو ابعد من هذا بكثير .. العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحبة الواسعة ، و شموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبدع واجتهاد خلاق .. ان الرجل يطل على المسألة الفكرية من فوق ، ويسعى إلى ان يكون الصراع الفكري ، لا قتالا وانشقاقا في صميم الذات العقدية للأمة الإسلامية ، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض الإسلامية ويقف بالمرصاد متحفزا لتدمير الشخصية الإسلامية ، تماما كما يسعى صهاينة اليوم لتحقيقه .. وصراع – من جهة أخرى – بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه ، وهذا هو الاخطر والاهم .. ومن ثم فان قيادة ألفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب ان تتحقق بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية، والعقد التاريخية، صوب ما هو اعم واشمل وابعد مدى ..

وثمة حادثة من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال : في اعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يؤيد مذهبا من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس ، وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين ألفريقين ، فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب وخرج إليهم نائبه وقال لهم عن لسانه :

نحن ما اردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة ، واظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق .. ثم اعلمهم ان نور الدين قرر استرضاء ألفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة بحلب .

لقد حقق نور الدين هذا التجاوز وتمكن من مد ابصاره صوب الاشمل والأبعد ، فبنى المدارس لكل المذاهب ، وحقق الاجواء الصالحة لكل الاتجاهات التي تعمل في اطار ألفكر الإسلامي الاصيل ، وتعامل مع كل العلماء أيا كان المذهب الذي ينتمون إليه ..

وصادق رجالا من أهل السنة والجماعة ومن الشيعة على السواء .. بل انه تعمد – كما يبدو – ان تشهد دولته مزيدا من التنوع الفكري ، والا تجمد مؤسساتها على نمط واحد .. فمن خلال التنوع والتغاير تتحقق الحركة وتتأصل الشخصية ويتدفق الابداع ..

تساءل أحد الطلاب عن موقف نور الدين من الشعر والشعراء وقال : حبذا لو نعرف شيئا عن هذه المسألة لكي يستكمل الحديث عن الجانب الثقافي كافة ابعاده..

واجاب الأستاذ : ان نور الدين في مقابل انفتاحه على العلماء الجادين والتقريب لهم والتقرب إليهم ، وفي مقابل ترحيبه بمعطيات العلم وثمار العقل .. كان كما يصفه كثير من المؤرخين ((قليل الابتهاج بالشعر)) ، لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب ، إنما عن نفور من بعض الشعراء انفسهم ، ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق . وتملقهم الزائف على حساب العدل ..

ونور الدين – كما رأينا دائما – يكره الكذب والتزوير .. وانه ليذكرنا هنا بسلفه العظيم عمر بن عبد العزيز ، لا في كراهيته للتجربة الشعرية ، ولكن بتوجسه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم .. ان المؤرخ ابن عساكر ، الشاهد المعاصر ، يبين لنا بكلمات حاسمة لماذا قل ابتهاج نور الدين بالشعر ، وهو لا يسميه شعرا ولكنه يسميه

مدحا ، ولهذا دلالته الساخرة في هذا المجال .. انه قليل الابتهاج ((لما علم من تزايد الشعراء ، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز)) ..

ومن ثم فان نور الدين – كسلفه – لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم ، بل لم يكن يعطيهم .. وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين فأجاب في إحدى مقاماته ((هوسهم للدولة سديد . وركن للخلافة شديد .. غير انه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجديب للشاعر الاديب .. فما لشاعر عنده من نعمة تجزى..)) ..

وعبارة ((غير انه ..)) التي ترد بعد عبارات المديح تلك ، توحي بان موقفه هذا لم يكن مرضيا عنه من الجميع .. فهناك دائماً من يريد ان (يأخذ) على حساب أي شيء .. في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة (اعطوه ألف دينار) أو عبارة (سل ما شئت) ، ومن بين هؤلاء الشاعر اسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستورا لموقف نور الدين من عطاء الشعراء :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت … له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة .. … من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن ابا شامة ، المؤرخ الدمشقي ، يتصدى بنفسه للرد على الرجلين : صاحب المقامة وصاحب الشعر ، ويفضح الازداجية التي يعانيها عدد من الشعراء فيقول : ((ما كان – نور الدين – يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد . وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز – وهو من سادات التابعين في الشام – انه كان جوادا حيث يحب الله وبخيلا حيث تحبون !! وأما شعر بن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين :

في كل عام للبرية ليلة … فيها تشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون الورى … ناران نار قرى ونار جهاد

وقد تقدم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد وغيرهم ، من مدح نور الدين بالكرم والجود ، ما قليل منه يرد الوهراني وابن منقذ ، وإنما الشعراء ، واكثر الناس ، كما قال الله تعالى في وصف قوم : ((فان اعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)) ..

نقر الأستاذ نقرتين على ساعته ثم أشار إلى تقويم معلق على الجدار وقال : لم يتبق أمامنا سوى لقائين فحسب ، وسأحاول ان اوجز في اولهما بقية الحديث عن موقف نور الدين من الشعر لكي نضع معا اللمسات الأخيرة لرحلة الثلاثين لقاء .. فالى اللقاء ..

(٢٩)

واصل الأستاذ حديثه عن موقف نور الدين من الشعر وقال : لم يكن أي من الرجلين : عمر بن عبد العزيز أو نور الدين محمود ، يكره الشعر لذاته كأسلوب فني في التعبير ، لقد كانت تجربة عمر بن عبد العزيز قد بلغت من الرقة والشفافية ما جعلها تبلغ وجدانية الشعر بل تتجاوزها إلى امداء ابعد بكثير .. بل كان في صباه يقول الشعر ويلحنه !! ورجل كهذا لا يمكن بحال ان يكون في حالة خصام مع الشعر .. أما نور الدين فان معاصريه انفسهم يحكون لنا كيف كان يتعشق الشعر .. الشعر الملتزم .. وكيف يطلب من بعضهم – احيانا – أن يسمعوه شعرا في المواقف والمناسبات .

ولكن ما هو اكثر دلالة من هذا كله ، ان شهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء ، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني وابن منير والعماد الأصفهاني وابن الدهان الموصلي .. وغيرهم .. اولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الارضية الصالحة لازدهار الشعر الملتزم الذي طرق أبوابا واسعة ، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لاصحابه ان يرحلوا إليها بقصائدهم العصماء لولا ان لقوا من الرجل اعجابا وتوافقا وانسجاما .. ولن يتسع وقتنا للحديث عن هؤلاء الشعراء وعن معطياتهم الشعرية رغم علاقتها الاكيدة بقضية المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ، وتعبيرها المؤثر عن زمنها المديد الزاخر بالسراء والضراء .. ويمكن ان احيلكم إلى دواوين هؤلاء الشعراء انفسهم لكي تقضوا مع جمال الاداء ألفني ، وصدق التعبير لحظات ممتعة ..

قال اكثر من طالب في وقت واحد : ولكننا نصر على ان نسمع شيئا من شعر المقاومة بعد هذه الرحلة الطويلة في التاريخ ..

أجاب الأستاذ وهو يبتسم : لا بأس .. ومد يده إلى حقيبته فاستخرج كتاب (الروضتين) لابي شامة واخذ يقلب صفحاته بحثا عن عدد من القصائد التي يتضمنها الكتاب .. وما لبث ان أشار إلى احداها ، وقال : ها هي ذي .. انها للعماد الأصفهاني ، الشاعر والمؤرخ المشهور ، وهي موجهة لنور الدين محمود ..

لو حفظت يوم النوى عهودها ... ما ماطلت بوصلكم وعودها

محمد يحمد عيش بلدة .... مالكها بعدله محمودها

مؤيد اموره ... بعزمة ... من السماوات العلى تأييدها

آثاره حميدة وإنما ... للمرء من آثاره حميدها

ان الورى بحبه وبغضه ... يعرف من شقيها سعيدها

قد جاءكم نور من الله فمن ... به اهتدى فانه رشيدها

جلا ظلام الظلم نور الدين عن ... ارض الشآم فله تحميدها

ان الرعايا منه في رعاية ... ونعمة مستوجب مزيدها

لنومها يسهر بل لأمنها ... يخاف ، بل بخصبها بجودها

بالدين والملك له قيامه ... وللملوك عنهما قعودها

ودأبه ثلم ثغور الكفر ، لا ... لثم ثغور ناقع برودها

قد اسبغ الله لنا بعدله ... ظلال أمن وارف مديدها

غدا ملوك الروم في دولته ... وهم على رغمهُم .. عبيدها

لما ابت هاماتهم سجودها ... لله ، اضحى للظبا سجودها

ان فارقت سيوفه غمودها ... فان هاماتهم غمودها

كم مغلقات من حصون عزمه ... مفتاحها ، وسيفه اقليدها

قد ردّت الفرنج لوفرت نجت ... منك ، ولكن روعها يبيدها

قهرتها حتى لود حيها ... من ذلة لو انه فقيدها

أماتها رعبك في حصونـها كانما حصونها لحودهـا
وان مصرا لك تعنو بعدمـا لسيفك العضب عنا صعيدهـا
والملة الغراء خال بالـها عال سناها ، بك حال جيدهـا
مفترة ثغورهـا ، ممنوعـة ثغورها ، محفوظة حدودهـا
وان بغـى جالوتها ضلالـة فانت في اهلاكـه داوودهـا
يا ابن قسيم الدولة الملك الذي خرّت له من الملوك صيدهـا
دع العدا بغيظها فانـما يذيب اكباد العـدا حقودهـا
يا دولة نورية أمـن الورى بخصبها ، وجودهـا ، وجودهـا
ما مثل الدنيا لمن يجمعها بـالحرص إلا قزّة ودودهـا
انت الذي يرفضها عن قدرة فـلا يشـوب زهـده زهيدهـا
فابق لنـا يا ملـكا بقـاؤه في كل عام للرعايا عيدهـا
فـي نعمة جديـدة سعودهـا ودولـة سعيـدة جدودهــا

توقف الأستاذ قليلاً ثم قال : من يسمعنا قصيدة أخرى ؟

رفع اكثر من طالب يده ، فاختار أحدهم وناوله الكتاب قائلاً : اختر لنا ما تشاء ..

قلب الطالب صفحات الكتاب ووقف عند احداها قائلاً : وها هي ذي قصيدة أخرى للشاعر نفسه .. العماد الأصفهاني .. وإذا كانت القصيدة السابقة تتميز بايقاعها السريع وجمال معطياتها البلاغية .. فان هذه القصيدة تتميز كما سترون بايقاعها الهادئ .. ومضامينها المؤثرة ... ثم راح يقرأ :

عقدت بنصرك راية الايمان وبدت لعصرك آية الاحسان
ياغالب الغلب الملوك وصائد الصيد الليوث وفارس ألفرسان
يا سالب التيجان من اربابها حزت ألفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود ما بين الورى في كل إقليم بكل لسان
احلى أمانيك الجهاد .. وانه لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم بكر فتح ولدته ظباك من حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بألفرنج حديثها قد سار في الافاق والبلدان
وملكت رق ملوكهم ، وتركتهم بالذل في الاقياد والاسجان
وجعلت في اعناقهم اغلالهم وسحبتهم هونا على الاذقان
إذ في السوابغ تحطم السمرالقنا والبيض تخضب بالنجيع القاني
وعلى غناء المشرفية في الطلى والهام رقص عوالي المرّان
وكأن بين النقع لمع حديدها نار تألق من خلال دخان
في مأزق ورد الوريد مكفل فيه بريّ الصارم الظمآن
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا طرق الضلال ومركب الطغيان ؟
اصبحت للاسلام ركنا ثابتا والكفر منك مضعضع الاركان
قل : أين مثلك في الملوك مجاهد لله في سر وفي أعلان ؟
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلا بالذي لا يستقلّ بثقله الثقلان

وبلغت بالتأييد أقصى مـبلغ ما كان في وسع ولا امـكان
دانت لك الدنيا فقاصـيها إذا حققته – لنفاذ أمرك – داني
فمن العراق إلى الشآم إلى ذرا مصر إلى قوص إلى اسـوان
لم تله عن باقي البلاد وإنما الهاك فرض الغزو عن همـذان
أذعنت لله المهيمن إذ عـنت لك اوجه الاملاك بالاذعـان
أنت الذي دون الملوك وجدتـه ملآن من عرف ومن عرفـان
في بأس عمرو ، في بسالة حيدر في نطق قس ، في تقى سلمـان
سير لو ان الوحي ينزل انزلـت في شانها سور من القـران
فاسلم طويل العمر ممتد المدى صافي الحياة مخلد السلطـان

(٣٠)

اجال الأستاذ عينيه في طلبته فوجدهم منهمكين في تسجيل ملاحظاتهم .. وقال لاحدهم وقد رآه يهم بالحديث : هات ما عندك ..

فقال الطالب : حبذا لو نضع ايدينا على المغزى النهائي لرحلتنا الطويلة عبر ما يقرب من قرن كامل من المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ..

وقال طالب آخر : وحبذا لو نعرف أيضا شيئاً عن الصيغ التاريخية التي تربط مأساتينا التاريخيتين إزاء الغزاة : الصليبيين والصهاينة ..

أجاب الأستاذ : هذا ما اتمنى سماعه منكم .. فها هي ذي ساعة اللقاء الاخير واني احب ان اسمع فيها اصواتكم ...

تكلم أحد الطلبة فقال : ان تاريخنا الإسلامي مجرى دفاق ، واغوار عميقة، وحركة دائمة تموج بين ضفتين ينفسح المدى بينهما – احيانا – لكي يغطي مساحات واسعة من العالم ، ويضيق احيانا أخرى حتى ليكاد يقطع انفاس المبحرين فيه إلى مصائرهم .. وفي فترات الاختناق والضيق هذه ، في ساعات الخوف والعجز والهزيمة .. في أيام المحن والاحزان والنكبات .. كان يطلع دائما بطل من ثنايا الغيب ، تبعثه حكمة الله من مداها البعيد ، فيضرب يمينا وشمالاً بعزم وتصميم .. وسرعان ما يجد المبحرون المختنقون ، المدى وقد انفسح أمامهم ، والطريق المضطرب المضني وقد استقام تحت خطواتهم .. فان هم ساروا على الطريق واسهموا في توسيع المدى ودفع الاختناق ، منحهم الله الأرض وادال الايام لهم .. وان هم عجزوا عن المتابعة ، وكبتوا طاقاتهم وقدراتهم ، سلبهم الله الأرض وأدال الأيام منهم ..

وسيظل تاريخ المسلمين هكذا ، يتأرجح بين المصيرين : اما حركة والتزام وجهد وابداع ، فالارض والدولة .. واما سكون وفسق ومروق وترف وتقليد فتشرد وخضوع .. وليس ثمة – في سنة الله – حل وسط ، اما هذا أو ذاك !!

هذا هو الدرس الفريد الذي علمتنا اياه رحلتنا عبر أيام الحروب الصليبية ، وما احوجنا إليه ، ونحن نجتاز موجة عاتية جديدة من هذه الحروب التي يقف فيها الإسلام والمسلمون ، وحيدين ، أمام القوى الهائلة التي تسعى إلى سحقهم وابادتهم ، وتستهدف اخراجهم من الأرض وتضييعهم في المتاهات .. باسم المقدسات هذه المرة كما كان الحال باسم المقدسات في المرة الأولى .. وقال طالب آخر : في تلك الايام انطلقت جموع الغزاة التي حشدتها اوربا من كل مكان .. تستهدف القدس ، تماما كما انطلقت جموع الصهاينة .. وفي الطريق إلى القدس راحت مواقع المسلمين تتساقط واحدة بعد الأخرى .. وفي الطريق إلى القدس اقيمت المجازر ، ودخّن على الابرياء في المغارات ، واجريت الدماء انهارا .. وفي الطريق إلى القدس مزق القران مرارا وسخر من الرسول تكرارا ، وطلع الغزاة على الناس بمآس يندى لها الجبين في تاريخ الصراع بين المعتقدات ..

في الطريق إلى القدس ذاق المسلمون الهوان والاذلال الوانا .. كان الصراع قد طحنهم من قبل ، وها هي قوة جديدة موحدة تبرز أمامهم في الميدان .. امة بلا وحدة .. وبلا قائد .. حتم عليها ان تذل وان تخضع وان تفقد الأرض والدولة .. ذلك هو منطق التاريخ وتلك هي سنة الله .. وكان الطريق إلى القدس يتسع يوما بعد يوم .. تحت وقع سنابك الخيول الغازية .. وهناك في القدس حدثت المذبحة .. قتل عشرات الالآف من المسلمين رجالا ونساءاً واطفالاً ، وراحت الخيول المغيرة تجر قوائمها جرا – بمن عليها من فرسان – في بحر من الدماء .. صوب بيت المقدس .. ودخلوه .. في تلك الايام كان المسلمون يتحرقون لظهور المنقذ الذي يوحدهم تحت لواء ، ويجمع طاقاتهم ليصهرها في بحر هدفهم الذي صبروا على انتظاره طويلاً .. المنقذ الذي ينطلق بهم ، بقوة وثقة وتخطيط ، صوب ساحات الجهاد التي خلت سنين طويلة من المجاهدين واقفرت من الابطال .. لكن الأرض الإسلامية ليست ارضا بورا ، والتاريخ الإسلامي ليس مزرعة في الصحراء لا تنبت إلا الحسك والشوك والعلقم .. أبدا .. وهل يمكن ؟ وارضنا هي تلك الأرض المعطاء ، وتاريخنا هو تلك المزرعة التي استنبتها الزمن – دوما – حدائق ذات

بهجة .. وفاكهة وابّا ؟ ومن ثم فما كان للمسلمين ان يطيلوا الانتظار .. ان الأرض التي تستمدّ كيانها من عقيدة التوحيد والحركة ، لا يمكن ان تعلن استسلامها وان تنام، عندما تدهم حدودها قوات الأعداء ، وتجتاز تخومها خيول المغيرين .. ما كان لهم ان يطيلوا الانتظار وهم يحيون في عصر لم تكن قد خبت فيه بعد قيم التوحيد والحركة التي اخرج بها الإسلام العرب من الظلمات إلى النور ..

واضاف طالب آخر : ان رحلتنا عبر سني التحرير الطويلة علمتنا كيف يرتبط دور الفرد بالجماعة في صياغة الحركة التاريخية .. البطل والجمهور .. فبدون تلك القيادات المجاهدة التي تميزت بالتفاني والتضحية والاخلاص والذكاء والمسؤولية ، ما كانت الجماهير بقادرة على ان تحقق شيئا كبيرا .. وبدون الجماهير المؤمنة ، المجاهدة ، الموحدة ، ما كانت القيادات بقادرة على ان تصنع شيئاً .. انه يتوجب – لكي تأخذ الحركة التاريخية مسارها صوب التحقق - تواجد قطبي الحركة : القيادة والقواعد ، وليس بذى بال ما يقال من ان البطل وحده أو الجمهور وحده هو الذي يصنع التاريخ .. لابد من شرط التقابل الفعال بين الطرفين .. انني اتذكر هنا الموزع الموسيقي ، قائد الاوركسترا الذي يسمى بالمايسترو .. انه بالمامه الدقيق وحسه العميق وحضوره المركز .. يعرف كيف يوجه المجموعة بكافة عازفيها فيتجمع اللحن إلى اللحن ، والصوت إلى الصوت ، والضربة إلى الضربة ، لكي ترفد تيار النغم التوافقي الذي يهز الوجدان ويبهره .. ان المجموعة بدون قائدها لا تستطيع ان تقدم لنا هذا اللحن التوافقي المؤثر .. والقائد بدون المجموعة لن يستطيع ان يفعل شيئا .. هكذا دور البطل والجمهور في صنع الأحداث التاريخية الكبيرة ..

وقال طالب ثالث : ان فلسطين كانت الهدف في الغزوتين الصليبية والصهيونية ، وان الدافع الديني كان واضحا فيهما معا .. في اساليب العمل وفي الاهداف .. ولا يمنع هذا من القول بوجود دوافع أخرى .. فالموقف العلمي يحتم علينا ان نضع ايدينا على كافة المساحات التي تشكل حركة التاريخ .. ولكن يبقى البعد الديني هو المساحة الأكبر في كلتا الغزوتين .. ومهما يكن من أمر فان ما يقوله الصهاينة اليوم من انهم

جاءوا لكي يعيشوا إلى الابد في الأرض التي اغتصبوها .. قالها من قبلهم الغزاة القدماء الصليبيون .. ولكن حركة التاريخ ما لبثت ان اسقطت مقولتهم واخرجتهم من الأرض التي استعبدوها .. ولم تكن حركة التاريخ – يوما – بمثابة اندفاع اعمى لا يعرف نظاما ولا سنة ولا قانونا .. انها- على العكس من هذا تماما – نتاج عدد من النظم والسنن والقوانين التي تحكمها وتضبطها .. ومن بين هذه السنن والقوانين ان الجسم الغريب الذي يزرع في ظروف استثنائية تعتمد على تفوق في القوى .. لا يمكن إلا ان يلفظ ، شرط ان تستعيد الارضية التي زرع فيها ، صحتها و عافيتها وحيويتها .. وهذا لا يتأتى إلا ببذل جهود فائقة ومستمرة من اجل التحقق بالصحة والعافية .. ولم يكن وقوفنا الطويل عند شخصية نور الدين محمود – على ما اعتقد – إلا محاولة جادة ومتأنية لوضع اليد على اشد صيغ التحقّق التاريخي عمقا وشمولا .. ان الرجل كافح على جبهتي النفس والعالم ، فحقق بذلك شروط الانتصار الحقيقي ، وان الصراع في الجبهات الأمامية لن يؤتي ثماره إلا إذا استند إلى جهد مقابل على جبهة الذات .. ذلك (**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم**) .. وصدق الله العظيم ..

قال الأستاذ وهو يلملم أوراقه ويوزع نظراته الحانية الملئى بالمحبة والتقدير لطلبة على هذا المستوى من الجد والذكاء : لقد قلتم كل شيء ، فلن استطع ان ازيد على ما ذكرتموه شيئا .. وكل ما ارجوه ، في ختام رحلتنا الطويلة هذه ، ذات الثلاثين لقاءا ، هو ان يوفقكم الله في مسعاكم ، وان تتخرجوا من أروقة الجامعة بعد اسابيع قلائل ، اوفياء لذكرى اولئك الاجداد العظام الذين بذلوا ما في وسعهم لتحرير الأرض . . قديرين على العطاء والبذل في كافة الجبهات .. من اجل التحقق بالشروط التي صنعت النصر أول مرة .. وهي جديرة بان تصنعه دوما .

- انتهى -

كتب للمؤلف

أ. الاعمال التاريخية

١. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز	(الطبعة ٨)	دار ابن كثير – دمشق
٢. عماد الدين زنكي	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٣. دراسة في السيرة	(الطبعة ١٧)	مؤسسة الرسالة – دار النفائس
٤. الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في افريقيا	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
٥. التفسير الاسلامي للتاريخ	(الطبعة ٥)	دار العلم للملايين – بيروت
٦. نور الدين محمود: الرجل والتجربة	(الطبعة ٢)	دار القلم – دمشق
٧. الامارات الارتقية في الجزيرة والشام: اضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة
٨. في التاريخ الاسلامي: فصول في المنهج والتحليل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٩. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. ابن خلدون اسلاميا	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١١. دراسات تاريخية	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير

١٢. حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٣. المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب	(الطبعة ١)	دار القلم – بيروت
١٥. حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي	(الطبعة ١)	دار النفائس – بيروت
١٦. مدخل إلى التاريخ الإسلامي	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء - بيروت
١٧. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين	(الطبعة ١)	دار الفكر – دمشق
١٨. دليل التاريخ والحضارة في الاحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)	(الطبعة ١)	المعهد العالمي للفكر الاسلامي – عمان
١٩. مدخل إلى الحضارة الإسلامية	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي

ب. الاعمال الفكرية

١. لعبة اليمين واليسار	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٢. تهافت العلمانية	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٣. مقال في العدل الاجتماعي	(الطبعة ٥)	دار ابن كثير
٤. مع القران في عالمه الرحيب	(الطبعة ٣)	دار العلم للملايين
٥. افاق قرانية	(الطبعة ٢)	دار العلم للملايين

٦. كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٧. مقالات اسلامية (الطبعة ٢) دار ابن كثير

٨. اضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٩. مدخل إلى موقف القران من العلم الحديث (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٠. العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم) (الطبعة ٤) دار ابن كثير

١١. مؤشرات اسلامية في زمن السرعة (الطبعة ٣) دار ابن كثير

١٢. حول اعادة تشكيل العقل المسلم (الطبعة ٦) دار ابن كثير

١٣. في الرؤية الإسلامية (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٤. حوار في المعمار الكوني (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٥. الإسلام والوجه الاخر للفكر الغربي (الطبعة ١) مؤسسة الرسالة

١٦. مدخل إلى اسلامية المعرفة (الطبعة ٤) دار ابن كثير

١٧. قالوا في الإسلام (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٨. رؤية اسلامية في قضايا معاصرة (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٩. القران الكريم من منظور غربي (الطبعة ١) دار الفرقان – عمان

٢٠. المرأة والاسرة المسلمة من منظور غربي (الطبعة ١) دار الفرقان

٢١. الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الاسلامي (الطبعة ١) منشورات فلسطين المسلمة – لندن

٢٢. متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (الطبعة ١) دار الحكمة - لندن

جـ. الاعمال الادبية

١. الماسورون (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٢. في النقد الاسلامي المعاصر (نقد)	(الطبعة ٥)	دار ابن كثير
٣. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٤. الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (دراسة)	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
٥. جداول الحب واليقين (شعر)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٦. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٧. خمس مسرحيات اسلامية (ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٨. محاولات جديدة في النقد الاسلامي (نقد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٩. الشمس والدنس (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. مدخل إلى نظرية الادب الاسلامي (دراسة)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١١. الاعصار والمئذنة (رواية)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٢. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٣. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. الفن والعقيدة (دراسة)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٥. في النقد التطبيقي (نقد)	(الطبعة ١)	دار البشير – عمان

١٦. ابتهالات في زمن الغربة (شعر)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٧. الغايات المستهدفة للادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	دار الضياء – عمان
١٨. كلمة الله (قصص)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٩. الرحيل الى اسطنبول (من ادب الرحلات)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٢٠. ريبورتاج (حوار في الهموم الاسلامية)	(الطبعة ١)	دار الحكمة
٢١. متابعات في دائرة الادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة